أعلام العرب

٣٠

حسّان بن ثابت

شاعر الرسول

بقلم

الدكتور سيّد حنفي حسُنين

وزارة الثقافة والإرشاد القومي
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

اهداءات ٢٠٠٢

اسرة الاستاذ/ محمد حسنين كرام

الاسكندرية

أعلام العرب

٣٠

حسان بن ثابت

شاعر الرسول

بقلم

الدكتور سيد حنفي حسنين

وزارة الثقافة والإرشاد القومي

المؤسسة المصرية العامة

للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

مقدمة

قد يسهل على الباحث أن يترجم لحياة عـالم متخصص ، أو مصلح اجتماعى ، أو قائد عسكرى ، ولكن أن يترجم لحياة فنان ، وشاعر بصفة خاصة ، فهنا وجه الصعوبة .

فالباحث حينما يعرض لحياة العالم المتخصص ، أو المصلح الاجتماعى ، أو القائد العسـكرى فانما يعرض لتطور مراحل حياته ، مدققا فى مظاهر نبوغه العلمى من خلال موضوعات خارجة عن ذاته يمكن التحقق منها ، ومعاينتها معاينة مباشرة ، بل قد يصل الأمر الى التحقق من هذا النبوغ تحقيقا معمليا يصل فيه الى قطع الشك باليقين . أما حين يعرض الباحث لفنان شـاعر مثلا فلن يجد الا متاهات أمامه ، عليه أن يعرف طريقه خلالها ، وأخطر هذه المتاهات هى متاهات النفس الانسانية التى تبدع الموضوع الفنى من خلال دوافع شديدة التشابك ، ومشـاعر عظيمة التعقيد ، كلما حاول أن يمسك أول خيط منها ليقوده الى نهاية ما ، أسلمه هذا الخيط الى خيوط كثيرة لا يعرف أيهـا يقوده الى طريقه .

والباحث حينما يحاول أن يسبر غور نفسية هذا الفنان فعليه أن يستعد لذلك استعدادا خاصا ، ثم عليه بعد ذلك أن يعرف أن ما كان يظنه فى بداية الأمر من خصائص هذه النفس قد ينتهى

الى عكسه هذا اذا ما وصل الى شيء فى نهـاية الطريق ، وقد لا يصل الى شيء أيضا .

وربما كان أسهل هذه المخاطر اجتيازا هو الموضوع الفنى نفسه ، فالقصيدة سوف تقول له شيئا لا شك فى ذلك ، وان كان ما يمكن أن تقوله له قد لا تقـوله لغيره ، أو تقوله بشـكل مختلف ، ورغم ذلك فهناك موضوع خارجى يمكن التحقق منه ، ويمكن استمداد الأحكام منه أيضـا ، بل وقد يخضعه لبعض التجارب المعملية ان أراد أن يظهر بمظهر العلمـاء التجريبيين ، ولكن .. ماذا يكون موقف الباحث اذا كان قد مر على الشاعر ما يقرب من ثلاثة عشر قرنا ونصف قرن على وفاته ، ولم تعد لدينا أخبار تحدثنا عنه الا أحاديث عابرة كتلك التى كان يتسلى بها المثقفـون الأرستقراطيون فى قصـورهم لقضاء سهراتهم كوسيلة من وسائل اللهو ، ولون من ألوان المتعة — أو مواقفه نقدية ولغوية اهتم بها علماء لم يكن أكثر هممهم يزيد — اذا عرض للشاعر — الا أن يفسر ببيت من شعره استعمالا لغويا معينا ، أو صورة بلاغية مرصودة ، فلم يكن فنه فى طبيعته وقيمته يثير فيه أدنى شعور بالجمال المطلق غير المحدود باللغة أو البلاغة اللفظية أو التقسيم المنطقى لأصناف الأخيلة . وقد يزيد الأمر تعقيدا أن تقف بعض الفرق الدينية أو الأحزاب السياسية من هذا الشاعر موقف المستغل لطاقاته ومركزه لتكسب تأييدا خاصا وذلك باضافة مالم ينظمه فى تمجيدها أو تأييد معتقدها الى دفتى ديوانه .

ذلك هو موقف الباحث من شاعر كحسان بن ثابت الأنصارى !

كان هذا الشاعر قد بلغ من العمر ما يقرب من ستين عاما عند بداية التاريخ الهجرى ، ثم اقتطع منه بعد ذلك أربعين عـاما آخرين ، ومعنى هذا أن الشاعر عاش نصف عمره فى الجاهلية يستلهم من صحراواتها قيم الفتوة وعنجهية البداوة ، ويرعى فيها ومن الضراوة ومرارة القتال ، ثم اذا هو يعيش نصف عمره الآخر فى الاسلام يستحلب حلاوة العقيدة ورحيق الأخـوة ، ويستمتع بصبا الأمن ونعيم السلام . واذا كان حسان قد شارك فى آخر عمره فى اضافة بعض أعواد الحطب الى حريق الفتنة التى ثارت أيام الخليفة الثالث حتى بداية خلافة الأمويين فقد كانت النيران مشتعلة سواء أضاف أعواده أو لم يضفها ، فالحـريق يضرى ، وحطبه تجمعه كل الأمصار !

حياته اذن طويلة خصبة ، مليئة بالأحداث والتغيرات ، وكان على الباحث الذى يريد أن يستوفى ترجمة لها أن يرصـد كل ذلك ، وأن يسجله بأمانة بقدر ما تمده المصادر من أخبار ، وبقدر ما يصور له شعره من أحداث .

غير أن أخطر ما كان يخاف منه أن يجترىء فى التفسير ، وخاصة أن الشاعر قد أخذ عند المؤرخين المسلمين مكانة خاصة شابها شىء من الاحترام الشديد زاد على توالى الأزمنة وتقادم الأيام لعلاقته بالرسول صلى الله عليه وسلم ، ولصلته بالدعوة الاسلامية وبكبار الصحابة والتابعين . لذلك التزم البـاحث ما تقوله النصوص القـديمة مقارنا بينها ، مفاضلا بين دلالاتها ،

متخذا موقف الحيدة العلمية التى تنهج النهج السليم فى العرض والدراسة والاستدلال .

واذا كان الهدف أخيرا أن تـعترض حياة هذا الشاعر العظيم عرضا بسيطا واضحا خاليا من الجفاف العلمى ، والاسـهاب فى المقدمات ، فقد حاولت فى نفس الوقت أن أهتم بالمنهج والاعتماد على النصوص الشعرية فى التفسير وخاصة لقلة الأخبار التى كان يمكن أن تغنى عن الاكثار من ايراد هذه النصوص .

والله الموفق .

دكتور سيد حنفى حسنين

العباسية فى نوفمبر ١٩٦٣

تمهيد

أرى لزاما علىّ قبل أن أبدأ فى الترجمة لحياة هذا الشاعر أن أقف من ديوان شعره موقفا خاصا تفرضه علىّ الأمانة العلمية ، وأن أبسط للقارىء مدى التوثيق الذى يناله هذا الشعر فى نسبته الى صاحبه .

ان تأخر عصر تدوين الشعر الى نهاية القرن الأول كان سببا فى ضياع شعر كثير للشعراء الجاهليين المخضرمين ، وهم الجاهليون الذين امتد بهم العمر فعاصروا الدعوة الاسلامية وربما عاصروا خلافة الراشدين كحسان بن ثابت .

وكانت هناك أسباب كثيرة أدت الى التأخر فى تدوين الشعر ، ربما كان أهمها أن العرب فى جاهليتها لم تكن تألف تدوين الشعر الا فى بعض الامارات الشمالية ثم انشغلت أثناء الدعوة الاسلامية وأثناء حروب الفتح عن التفرغ لهذا العمل أيضا ، ولم يبدأ الانتباه اليه الا فى أواخر القرن الأول الهجرى عندما هدأت الحروب وخمدت الفتن ، وأخذ العلماء يجمعون الشعر من ألسنة الرواة الباقين الذين يفدون على المدن ، أو ينزحون الى البوادى يبحثون عن الأعراب الذين ما زالوا يحفظون تراثهم القديم .

ورغم اختلاف النظريات حول مدى ما دونه الجاهليون من

تراثهم ، وحول أسباب تأخر التدوين الى نهاية القرن الأول ، فالنتيجة التى يتفق عليها هؤلاء المختلفون أن شعرا كثيرا قد ضاع ولم يتمكن العلماء من تدوينه ، وأن شعرا كثيرا وضعه الرواة على ألسنة بعض الشعراء لأسباب تختلف بواعثها بين دينية وسياسية واقتصادية واجتماعية .

فاذا جئنا لشعر حسان خاصة لنتبين موقفه من كل ذلك فسنجد أن شعره تعرض لتلك الأزمة التى تعرض لها شعراء عصره ، بل لقد فاق تعرضه غيره وذلك لمكانة حسان من نفوس المسلمين . ويمكننا أن نلخص أسباب الوضع فى شعره باختصار فى النقاط الآتية .

١ ـ الخصومات بين العشائر القرشية :

يقول ابن سلام « حسان بن ثابت كثير الشعر جيده ، وقد حمل عليه مالم يحمل على أحد لما تعاضهت قريش واستبت وضعوا عليه أشعارا كثيرة لا تنقى » ويعنى ابن سلام بهذا أنه لما اصطرعت بطون قريش منذ فتنة عثمان أخذت تصنع أشعارا مختلفة على لسان حسان ، فمن ذلك قصيدة فى هجاء أبى لهب يقول عنها سعيد بن عبد الرحمن بن حسان : ليست هذه الأبيات من قول حسان ، وانما وضعت عليه . وهى تجرى على هذا النحو :

فلو كنت حرا من آكارم هاشم
وأشرافها منها منعت المظالما

ولكن لحيانا أبوك ورثتـــــه

ومأوى الخنا منهم فدع عنك هاشما

ســما هاشم للمكرمات وللعـــلا

وغودرت فى كاب من اللؤم جاثما

ومنها أيضا الأبيات التى وضعت على لسان حسان فى هجاء بنى مخزوم والتى يقول فيها :

كلاب وتيم ألصقا ابن أخيهمـــا

ولولاهما كانوا عبيـــد بنى بكر

يقول العدوى — أحد علماء القرن الثالث — ليست هذه الأبيات بمعروفة لحسان ومخزوم أثبت وأشهر فى قريش من أن تشتم لأن جدة رسول الله صلى الله عليه وسلم من بنى مخزوم . وقال : سمعت مشايخ قريش يقـولون ان ابراهيم بن هشام المخزومى كان بعث الى محمد بن اسحق — مؤلف السيرة النبوية فوضع فى عنقه حبلا وأخرجه من مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فصير ابن اسحق هذه الأبيات — وهى مصنوعة — فى المغازى . قال : وكثير مما جاء به ابن اسحق من الشعر فى المغازى مدخول لم يروه أبو عمـرو ولا ابن الأعرابى ولا أبو عبيـدة ولا أبو زيد الأنصارى .

٢ ــ الخصومات السياسية :

كانت الفرق السياسية منذ خلافة عثمان تختصم اختصـاما شديدا ، وكانت الخصومة فى أول الأمر بين معاوية ومن يتبعه من الأمويين وعلى ومن يتبعه من الهاشميين ، ولم يلحق حسان

عصر الفتنة الثانية أيام يزيد اذ توفى فى أواخر عهد على أو أوائل عهد معاوية ولكن شعره على ما يظهر استغله الزبيريون وخصومهم كما استغله الهاشميون ، ومضوا فى هذا الاستغلال حتى العصر العباسى . ومن أمثلة ذلك .

(أ) الأمويون : بمجرد أن قتل عثمان أخذ معاوية وبنو أمية يعتبرون أنفسهم أولياء دمه ، ومن ثم مضوا يطالبون عليا بتسليم قاتليه ، بل لقد عدوه شريكا لهم ، وتصايح شعراؤهم من أمثال الوليد بن عقبة يطلبون أخذ الثأر له ، وأخذوا يضعون على حسان شعرا فى بكاء عثمان ومطالبة معاوية بأن يتقدم ليثأر من قتلته وذلك مثل :

أبلغ معاوية بن حرب مألكا
ولكل أمر يستراد قرار (١)
لا تقبلن دنية أعطيتها
أبدا ولما تألم الأنصار
حتى تبار قبيلة بقبيلة
قودا وتخرب بالديار ديار (٢)
وتجىء من نقب الحجاز كتيبة
وتسيل بالمستلئمين صرار (٣)

---

(١) المألك : الرسالة (٢) تبار من البوار وهو الهلاك . القود : القصاص . (٣) النقب : الطريق ومرار : جبل قريب من المدينة . استلأم الرجل اذا لبس ما عنده من عدة رمح وبيضة ومغفر وسيف .

(ب) الزبيريون : وكما استغل الأمويون مكانة حسان فى الاسلام وقيمة شعره بين المسلمين استغله أيضا الزبيريون ، فقد صنعوا مقطعات فى مدح أنفسهم وأضافوها اليه ، مثال ذلك أنهم رووا أن الزبير مر يوما بحسان وهو فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ينشد ، والحاضرون غير مقبلين عليه ، فجلس الزبير وقال : مالكم لا تستمعون ؟ والله لطالما أصغى اليه صاحب هذا القبر وأجازه الجوائز السنية . فقال حسان يمدحه :

أقام على عهد النبى وهديه
حواريه والقول بالفعل يعدل
أقام على منهاجه وطريقه
يوالى ولى الحق والحق أعدل

وواضح أن الوضاعين يستغلون فى هذين البيتين حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان لكل نبى حواريا وان حواريى الزبير » وتعرض بقية الأبيات لقرابته للرسول صلى الله عليه وسلم وفيها يجاهر الزبيريون بأحقية عبد الله بن الزبير بالخلافة على هذا النحو :

وان امرأ كانت صفية أمه
ومن أسد فى بيتها لمرفل [1]
له من رسول الله قربى قريبة
ومن نصرة الاسلام مجد مؤثل

---

(١) مرفل : اى مسود .

فكم كربة ذب الزبير بسيفه
عن المصطفى والله يعطى ويجزل
فلا مثله فيهم ولا كان قبله
وليس يكون الدهر ما دام يذبل
ثناؤك خير من فعال معاشر
وفعلك يا ابن الهاشمية أفضل

وواضح أن البيت الرابع فى هذه الأبيات يضع آل الزبير فوق عشائر قريش الأخرى ، فليس للزبير شبيه ولا نظير فى قريش ، وهم بعد ذلك أقرب الأسر لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو جانب اعتمد عليه الحزب الزبيرى فى مناهضته للأمويين .

٣ ـ العباسيون :

حاول العباسيون عندما تولوا مقاليد الخلافة أن يشيدوا بالعباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يجدوا خيرا من حسان كغيرهم من الأحزاب السياسية كى يضعوا على لسانه مدحا فى العباس . فمن ذلك قصيدة نسبوها اليه فى رثاء جعفر بن أبى طالب أولها :

تأوبنى ليل بيثرب أعسر وهمٌ اذا ما نوّم القوم مسهر

فاننا نجد فى تضاعيفها أبياتا يذكر فيها عليا والعباس مع جعفر وحمزة رضى الله عنهم جميعا وذلك دون مناسبة الا أنهم أولياء الله يكشف بهم الكرب ، ويجلى بشفاعتهم الهم ، وكأن صانع هذه الأبيات يريد أن يقول ان عشيرة العباس لها حق فى

الخلافة كحق على بن أبى طالب وعشيرته ، والأبيات تمضى على هذه الشاكلة :

بها ليل منهم جعفر وابن أمـــــه
على ومنهم أحمـــــد المتخير [١]
وحمـــزة والعبـــاس منهم ومنهم
عقيل وماء العـــود من حيث يعصر
بهم تكشف اللأواء فى كل مـــأزق
عماس اذا ما ضاق بالقوم مصدر [٢]
هم أوليــــــــاء الله نزل حكمه
عليهم وفيهم ذا الكتاب المطهـــر

وواضح تماما أن ناظم هذه الأبيات وواضعها على حسان شاعر ضعيف مبتدىء .

ولم يقف الأمر عند وضع الشعر على حسان ، بل لقد اختلط أيضا شعره بشعر غيره من الشعراء أمثال كعب بن مالك وعبد الله ابن رواحة ومعقل بن خويلد الهذلى وسعد بن الحصين وبشير ابن سعد وعبد الله بن الحارث السهمى وصرمة بن أنس الأنصار ، هذا الى جانب اختلاط شعره بشعر ابنه عبد الرحمن بن حسان .

وقد كان اختلاط شعر حسان بشعر كعب أشد وأعظم من اختلاطه بشعر غيره من الشعراء ، فقـــد كان كل منهما يهجو المشركين بالأنساب والأيام الجاهلية ، أما عبد الله بن رواحة فقد

---

(١) البهلول : الحيى الكريم .
(٢) اللأواء : الشدة والمأزق . عماس : مظلم .

كان يهجوهم بالكفر ، لذلك كان اختلاط شعرهما عند الرواة قليلا . ومن أمثلة اختلاط شعره بشعر كعب :

سقتم كنانة جهلا من سفاهتكم
الى الرسول فجند الله مخزيها

يقول ابن هشام معلقا على نسبتها لحسان : أنشدنيها أبو زيد الأنصارى لكعب بن مالك .

وكذلك الأبيات التى أولها :

على حين أن قالت لأيمن أمه
جبنت ولم تشهد فوارس خيبر

قال ابن هشام : أنشدنى أبو زيد الأنصارى هذه الأبيات كعب ابن مالك ومن أمثلة ما نسب الى حسان من شعر عبد الله ابن رواحة :

شهدت باذن الله أن محمدا
رسول الذى فوق السماوات من عل

أما اختلاط شعر حسان بشعر ابنه عبد الرحمن فيرجع الى خلط الرواة وعدم تمييزهم بين أشعار الابن والأب . فمن ذلك قصيدة طويلة عددت أيام الأنصار مع الرسول صلى الله عليه وسلم ونصرتهم له فى الغزوات المختلفة ، ونجد ابن هشام يقول عنها انها تروى لابنه عبد الرحمن . وهى التى أولها :

ألست خير معدّ كلها نفرا
ومعشرا ان هم عموا وان حصلوا

ومن أمثلة ما وقع فيه خلط فى روايته ما ذكره ابن هشام من أن مقطوعة حسان التى مطلعها :

مستشعرى حلق الماذى ، يقــدمهم
جلد النحيزة ، ماض ، غير رعديد[1]

هى من نظم عبد الله بن الحارث السهمى .

كذلك روى ابن عبد البر أن الأبيات المنسوبة الى حسان ومطلعها :

ثوى فى قريش بضــع عشرة حجة
يذكر لو يلقى صـــــديقا مواتيــا

هى من نظم صرمة بن أبى أنس الأنصارى .

من هذا يتضح أن الباحث حينما يتعرض لحسان ولشعره فانما سيتعرض لموضوع شائك ، وعليه أن يحرص كل الحرص فى بسط هذا الموضوع واستخلاص نتائجه . ولقد حاولت جهدى أن أوفى الدراسة حقها بقدر ما تسمح به طبيعة هــذا الكتاب وجمهور القراء الذى سوف يُقدم اليهم .

---

(١) استشعرت الثوب : اذا لبســته على جسمك من غــير حاجز . الشعار : ما ولى الجسم من الثياب . والدثار ما كان فوق ذلك . الماذية : من الدروع البيضـــاء . والماذى : الحديد كله : الدرع والمغفر والسلاح .

الفصل الأول

يثرب قبيل الإسلام

ترتبط نشأة المدن بالأساطير التى تعبر أصدق تعبير عن عقل الانسان فى مراحل تطوره الأولى وخصب مخيلته ، وقد شاركت يثرب — مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما بعد — فى هذه الصفة ، اذ تناقل الاخباريون حول نشأتها أساطير كثيرة ، ومن الطريف أنهم أسندوها الى رواة ثقات ! [١] .

ولسنا نريد أن نقف عند هذه الأساطير ، ولا نحب أن ندرس من تاريخ يثرب القديم الا ما بعد منتصف القرن السادس الميلادى ، فان ما قبل ذلك تغمره الأساطير وتملأه الأخبار التى لم يوثق منها شىء بعد .

ونحن — فى الحق — لا يعنينا من تاريخ يثرب سوى تلك الفترة التى عاشها حسان فى الجاهلية ، والتى عانى فيها ما كان يشتجر من صراع قبلى بين الأوس والخزرج ، كما سوف تعنينا تلك الفترة الأخرى من حياة هذه المدينة التى عاشها الشاعر تحت

---

(١) أنظر وفاء الوفا فى اخبار دار المصطفى للسمهودى ١ : ١١٧ وما بعدها .

ظلال الاسلام ، وهى التى امتدت حتى نهاية خلافة علـى بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه .

وقد اعتبر الجغرافيون المسلمون القـدماء يثرب ثانية مدن الحجاز فى الأهمية الاقتصادية بعد مكة ، ووصفوها فقـالوا انها تقع وسط سهل ينحدر انحدارا خفيفا نحو الشمال حيث ينتهى بتلال أحد ويمتد على بعد أربعة أميال منها تقريبا . وتكثر فى غربى هذا السهل وشرقيه حرات سوداء [1] وهى بقايا براكين قديمة تتخللها وديان خصبة ، والجوانب الشرقية لهذا السهل أقل خصـوبة من الجوانب الغربية لما ينتشر فيها من تلال . أما فى الجنوب فيترامى هذا السهل الى أبعد ما يبلغه بصر ، وتتدفق الميـاه تبعا لانحداره من الجنوب الى الشمال حيث تتجمع فى زغابة ، كما أن المياه تفيض من الحرات وتتجمع فى الشمال أيضا ، ثم تتجه غربا الى حافة وادى اضم ، ولا تمتلىء هذه الأودية بالمياه الا بعد سقوط الأمطار مما يجعل مستوى المياه الجوفية مرتفعا ، ومن ثم تكثر الآبار والينابيع . وعندما تسقط الأمطار غزيرة فى عام من الأعوام فانها تكوّن بحيرة عظيمة تهدد أبنية المدينـة وخاصة فى الجنوب . وقد حدث أن أمطارا غزيرة سقطت على المدينة فى عهد الخليفة عثمان بن عفان فأمر ببناء سد يحميها من مثلها . ولمصادر المياه أسماء عدة منها : فى الغرب العقيق ورانونا ، وفى الشرق قناة ومهزوز ومذينيب . والتربة رملية جيرية مالحة وهى خصبة على العموم وخاصة فى الجنوب .

---

(١) صخور سوداء .

ومناخ يثرب بارد رطب فى الشتاء وحار قليل الغيوم فى الصيف !

أما غلاتها فيكثر فيها النخيل ، كذلك ينبت فيها البرتقال والليمون والرمان والعنب والموز .

ويظهر أن المدينة كانت فى أول الأمر أبنية وأكواخا متواضعة تحيط بها الحدائق والزروع ثم أخذت تزحف شمالا حيث ارتبط بها اسم يثرب . وأصبحت بعد أن نمت بهذه الصورة معرضة لهجمات المغيرين من البدو ، ولم يكن هناك ما يحمى أهلها غير تلك الأطم (١) التى يلوذون بها حتى يرحل عنهم المغيرون .

وتاريخ يثرب — وان كنا لن نتعرض له — قديم كما تدل على ذلك النقوش والأخبار — اذ نراها فى الكتابات المعينية والسبئية . كذلك ذكرها بطليموس فى جغرافيته باسم iathrpa ، وكذلك اصطفيان البيزنطى . وقد عرفت يثرب باسم « المدينة » أخذا من كلمة medinta الآرامية التى تعنى « الحمى » وقد كان اليهود الذين ينزلونها متأثرين بالثقافة الآرامية ، أما أنها اختصار لاسم « مدينة الرسول » فيظهر أن هذا رأى متأخر (٢) .

وتاريخ من نزل بيثرب قديما مجهول ، أما ما يذكره الاخباريون من وجود العماليق وجرهم بها ومجىء اليهود اليها

---

(١) الأطم : هى الحصون التى كان أهل المدينة يبتنونها ليحتموا بداخلها .

(٢) انظر تاريخ العرب قبل الاسلام للدكتور جواد على ٤ : ١٨١ .

فى أيام موسى فانه لا يستند الى دليل ، والذى نعرفه يقينا أن أهل المدينة فى عصر الرسول كانوا عربا ويهودا ، وكان العرب فيها ينقسمون الى قبيلتين كبيرتين هما الأوس والخزرج وبينهما صلة قربى معروفة ، وكان اليهود يعيشون فيها قبائل بلغت نيفا وعشرين قبيلة ، وقد اشتهر من بينها قبيلتا قريظة والنضير [1] . والأوس والخزرج من بقايا هجرات القبائل اليمنية الى الشمال وذلك بعد الأزمات الاقتصادية التى لحقت بهم وخاصة بسبب انهيار سد مأرب الذى حدث أكثر من مرة ، أما اليهود فهم بقايا هجرات قديمة جاءت من الشمال بسبب اضطهاد الرومان لهم على توالى القرون .

وقد سجل التاريخ صراعا بين القبائل العربية واليهودية فى يثرب بسبب تشاحنهم على المناطق الخصبة فيها ، وكان العرب يستعينون فى هذا الصراع بأقربائهم من القبائل اليمنية الأخرى التى هاجرت مثلهم الى الشمال واستطاعوا أن يسيطروا على يثرب ويفرضوا سلطانهم على اليهود ، على أنه سرعان ما تحول الصراع الى بطونهم فأخذ اليهود يسترجعون نفوذهم وقوتهم مرة أخرى . ولم يخمد هذا الصراع الا عندما هاجر الرسول الى يثرب وآخى بين القبيلتين كما آخى بينهما وبين المهاجرين .

ويجدر بنا أن نقف عند هذا الصراع القبلى الذى شارك فى بعضه حسان قبيل الاسلام حتى نستطيع أن ندرس حياته وندرك

---

(١) وفاء الوفا فى أخبار دار المصطفى ، ١ : ١٨٠ للسمهودى ، ومعجم البلدان ٤ : ٤٦٣ ، الأغانى ٩ : ٩٤ — ٩٥ .

طبيعة الظروف الاجتماعية التى عاش فيها . وقد اتخذ هذا الصراع شكل حروب متعاقبة مثل يوم السرارة ويوم الربيع ويوم فارع البقيع ويوم معبس ومضرس . وأهم هذه الأيام هى : [1]

١ — يوم سمير	:	للأوس على الخزرج
٢ — يوم كعب بن عمرو	:	للخزرج على الأوس
٣ — يوم حاطب	:	للخزرج على الأوس
٤ — يوم بعاث	:	للأوس على الخزرج

يقول الاخباريون فى حرب سمير : حدث أن وفد على يثرب وافد من ذبيان يسمى كعب الثعلبى ونزل على مالك بن العجلان الخزرجى وحالفه . وفى أحد الأيام خرج كعب الى سوق بنى قينقاع فرأى رجلا من غطفان معه فرس وهو يقول : ليأخذ هذا الفرس أعز أهل يثرب . وثارت مناقشة حول أعز أهل يثرب . وقال كعب الثعلبى : هو مالك بن العجلان فغضب رجل من الأوس من بنى عمرو بن عوف يقال له سمير بن زيد ولزم كعبا حتى قتله فى سوق لهم بقباء . فثار مالك بن العجلان وحض قومه من الخزرج على قتال الأوسيين أو دفع الدية كاملة . ورفضت الأوس دفع دية كاملة وعرضت دية الحليف وهى نصف الدية الكاملة — فثارت الحرب ولم تضع أوزارها الا بعد أن تقاتل الأوس والخزرج نحو عشرين سنة كثرت فيها أيامهم ، وأوشك أن يفنى بعضهم بعضا . فحكّمت القبيلتان ثابت بن المنذر بن حرام

---

(١) أنظر فى هذه الأيام كتاب أيام العرب فى الجاهلية لأبى الفضل ابراهيم والبجاوى .

والد حسان . ولم يدرك حسان تلك الحرب ولكنه رد فيها على شاعر الأوس قيس بن الخطيم عندما فخر عليه بهذا اليوم .

أما يوم كعب بن عمـرو فقـد حـدث أن رصد رهط من بنى جحجبى من الأوس كعب بن عمرو المازنى الخزرجى فضربوه حتى قتلوه أو كادوا ، فلما بلغ أخاه عاصم بن عمرو ما حدث ، خرج ومعه بنو النجار وقاتلوا الأوس قتالا شديدا حاول فيه عاصم أن يقتل أحيحة بن الجلاخ الأوسى مقابل قتل الأوس لأخيـه كعب . وكان هذا اليوم للخزرج على الأوس .

أما يوم حاطب فكان نوعا من أنواع الاستفزاز بين القبيلتين . فقد كان حاطب بن قيس الأوسى سيدا شريفا ، وحدث أن نزل به رجل من ذبيان أكرمه وأقام عنده ، وذات يوم غدا هذا الرجل الى سوق بنى قينقاع فرآه أحد بنى الحارث بن الخزرج اسمه يزيد ، فقال لرجل يهودى : لك ردائى ان كسعت هذا الذبيانى . ففعل اليهودى وأخذ رداء يزيد . فنادى الذبيانى : يا لحاطب ! كسع ضيفك وفضح ! فجاء حاطب فقتل اليهودى ، فقتل يزيد الخزرجى رجلا من الأوس بذلك اليهودى ، وثارت الحرب بين القبيلتين . وكان على الخزرج عمرو بن النعمان البياضى ، وعلى الأوس حضير بن سماك الأشهلى . وعلم عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر وخيار بن مالك الفزاريان بالأمر فقدما يثرب وتحدثا مع الأوس والخزرج فى الصلح وضمنا أن يتحملا الديات ، فأبوا ، وامتشقوا الحسام وكانت الدائرة على الأوس .

أما يوم بعاث فهو صورة من صور تدخل اليهود فى العلاقات

بين القبيلتين وافساد أخوتهما ببذر بذور الفتنة والشقاق بينهما ونصرة احداهما على الأخرى رغبة فى اضعاف القبيلتين معا . فقد حدث أن استعانت الأوس ببنى قريظة والنضير فى حروب كانت بينهم وبين الخزرج ، فبعثت الخزرج الى القبيلتين اليهوديتين تقول : ان الأوس فيما بلغنا قد استعانت بكم علينا ، ولن يعجزنا أن نستعين بأعدادكم وأكثر منكم من العرب ، فان ظفرنا بكم فذلك ما تكرهون . وان ظفرتم بنـــا لم ننم عن الطلب أبدا ، فتصيروا الى ما تكرهون ، ويشغلكم من شأننا ما أنتم الآن منه خالون . وأسلم لكم من ذلك أن تدعونا ، وتخلوا بيننا وبين اخواننا . ثم طلب الخزرج رهائن من ولدانهم ليضمنوا عــدم نصرتهم للأوس . فأرســل اليهود لهم أربعين غلاما ، ففرّقهم الخزرج فى دورهم ، غير أن بطنا من الخزرج — وهم بياضة — حرضهم زعيمهم عمرو بن النعمان على أن يأخذوا منازل بنى قريظة والنضير لأنها أفضــل من منازلهم ، وراســل اليهود فى ذلك والا يقتل رهائنهم فرفض اليهود . وقتل عمرو بن النعمان ومن أطاعه من الخزرج الرهائن التى كانت لديهم ، ورفض عبد الله ابن أبىّ أن يفعل فعلهم ، وبعثت قريظة والنضــير تستنصران الأوس عــلى أن ينــزل كل بيت من النبيت — وهم حى من الأوس —على بيت من بنى قريظة ، فنزلوا معهم فى دورهم ، واصطفوا فى صفوفهم يحاربون الخزرج . وحاربتهم الخزرج وعلى رأسها عمرو بن النعمان البياضى ، ورفض عبد الله بن أبىّ أن يشترك فى تلك الحرب ، وقال ان هذا بغى منكم على الأوس

وعقوق . وأرسلت الخزرج تستنصر بجهينة وأشجع ، وأرسلت الأوس مع بني قريظة والنضير الى مزينة . وذهب حضير الكتائب الأشهلى الى أبى قيس بن الأسلت فأمر أن يجمع له أوس اللات ، فجمعهم له أبو قيس . فقام فيهم حضير خطيبا وحرضهم على القتال ، وطلب اليهم أن يعقدوا لأبى قيس بن الأسلت فرفض أبو قيس وقال : انى لم أرأس على قوم فى حرب قط الا هزموا وتشاءموا برياستى . وكان اللقاء ببعاث وانهزمت الأوس أول الأمر ولكنها انتصرت أخيرا ووضعت فى الخزرج السلاح ، ثم كفت عن سلبهم بعد اثخانها فيهم ، وكثر شعر القوم فى هذا اليوم هجاء ورثاء وفخرا . وشارك حسان فى هذه المعركة اللسانية مشاركة فعالة .

من هذه النماذج الأربعة لأيام الأوس والخزرج تتضح صورة الوضع الاجتماعى فى يثرب قبيل الاسلام ، فصراع بين الأوس والخزرج وبين اليهود ، ثم صراع بين الخزرج وبين الأوس ، وكل هذا الصراع ينبع من مسببات قبليه وجهالة بدوية أو تدخل سافر من اليهود فى العلاقات بين القبيلتين الشقيقتين لاشعال الفتنة بينهما واضعافهما حتى يستطيعوا أن يسترجعوا نفوذهم وسيطرتهم على المدينة ، ويبسطوا سلطانهم على القبيلتين .

كان المجتمع اليثربى اذن مجتمع شقاق وقتال لعب فيه اليهود دورا خطيرا ، واستعانت فيه القبيلتان العربيتان بأنصار من الخارج مرة وباليهود مرة أخرى ، وقد سبب هذا توترا شديدا فى العلاقات الاجتماعية بين سكان المدينة ، كما أضعف الحياة

الاقتصادية بها اذا قارناها بمثيلتها فى مكة التى عاشت فى هدوء نسبى فى أواخر القرن السادس الميلادى .

وقد عاشت الديانة اليهودية جنبا الى جنب مع الوثنية العربية وان كانت هناك شواهد تدل على أن العرب احتقروا ديانة اليهود وعاداتهم وسلوكهم .

ويلاحظ الباحث أن كثيرا من بطون القبيلتين الكبيرتين فى يثرب قد نبذت حياتها الرعوية ، وشاركت اليهود فى زراعة الأرض والارتباط بها ، كما حاكتهم فى اتخاذ الآطام حصونا والدور سكنا ، ولكن هذا لا ينفى أن بطونا أخرى احتفظت بتقاليدها الرعوية وثالثة نشطت فى التجارة ، ورفضت أن تمتهن الزراعة أو الصناعة .

الفصل الثانى

نشأة حسان

(أ) نسبه :

نسب الرواة حسان الى أبيه فقالوا : هو حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام بن عمرو بن زيد مناة بن عدى بن عمرو بن مالك ابن النجار — وهو تيم الله — بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج بن حارثة بن ثعلبة العنقاء بن عمرو مزيقياء بن عامر بن ماء السماء ابن حارثة الغطريف بن امرىء القيس البطريق بن ثعلبة البهلول ابن مازن بن الأسد [1] بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد ابن كهلان بن سبأ يشجب بن يعرب بن قحطان .

ثم نسبوه الى أمه فقالوا : أم حسان الفريعة بنت خنيس [2] ابن لوذان بن عبدون بن ثعلبة [3] بن الخزرج بن ساعدة بن كعب ابن الخزرج .

---

(١) الأسد لغة فى الأزد وبالسين أفصح .

(٢) كذا فى أقدم مخطوطه للديوان (٢٥٥ هـ) . وفى الأغانى ٤ : ١٣٤ ، وأسد الغابة ٢ : ٤ الفريعة ابنة خالد بن خنيس .

(٣) فى مخطوطة الديوان وفى الأغانى ٤ : ١٣٤ : ابن عبدود ابن زيد بن ثعلبة . وفى سيرة بن هشام ٢ : ٨٧ خنيس بن حارثة ابن لوزان .

من هذا نلاحظ أن حسان خزرجي من جهة أبيه وأمه معا ، بل ومن أقوى بطونها جميعا .

ويصعب على الباحث أن يحدد السنة التى ولد فيها حسان ، فرغم أن معظم الرواة اتفقوا عـلى أنه عاش ما يقرب من مائة وعشرين عاما الا أنهم اختلفوا فى سنة وفاته [١] ، فقد قيل انه توفى سنة أربعين من الهجرة ، وقيل بل سنة خمسين ، وقيـل بل سنة أربع وخمسين ، وقد وضعه الطبرى فيمن توفوا سـنة ثمانين من الهجرة !!

ولما كانت أخباره تنقطع فى أواخر عهد علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، فاننا يمكننا أن نأخذ بالرواية التى تقول انه توفى سنة أربعين من الهجرة تقريبا .

وان تحديدنا لسـنة أربعين من الهجرة زمنا لوفاته يجعلنا نرفض فكرة أنه عاش ما يقرب من مائة وعشرين عاما ، فقد روى أنه عندما هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم الى المدينة كان حسان يبلغ من العمر ستين عاما تقريبا ، ومعنى ذلك أنه عاش ما لا يزيد عن مائة عام ، ويكون بذلك قد ولد فى منتصف العقد السابع من القرن السادس الميلادى . وكانت أسرة حسان ذات شأن عظيم فى الجاهلية والاسلام معا ، فوالده ثابت بن المنـذر قد حكّمته الأوس والخزرج فى حرب سمير ونزلوا على حكمه ،

---

(١) انظر الاستيعاب لابن عبد البر (مادة حسان) .

وأخوه أوس بن ثابت [1] ممن شهد العقبة مع السبعين من الأنصار كما آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين عثمان بن عفان الصحابى الجليل وثالث الخلفاء الراشدين !

ومن الرواة من يقول ان أوس بن ثابت شهد بدرا وأحدا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوفى فى خلافة عثمان ، ومنهم من يقول انه قتل يوم أحد شهيدا . ويظهر أن الرأى الأخير هو الصواب . فقد جاء فى قصيدة لحسان ما يشير الى استشهاد أخيه أوس عندما قال :

ومنا قتيـــل الشعب أوس بن ثابت
شهيدا وأسنى الذكر منه المشاهد

أما الأخ الثانى لحسان فهو أبى بن ثابت [2] وكان يكنى بأبى شيخ ، وقد شهد بدرا وأحدا وقتل يوم بئر معونة شهيدا فى صفر على رأس ستة وثلاثين شهرا من الهجرة .

---

(١) اوس : اخ لحسان من ابيه ، وأمه سخطى بنت حارثة بن لوذان ابن عبدود من بنى ساعدة ، وكان ثابت بن المنذر خلف على سخطى بعد ابيه وكانت العرب قبل الاسلام تفعل ذلك ولا ترى فيه شيئا . وقد أخلف اوس عقبا : شداد بن أوس ويعلى بن شداد ابن أوس (انظر الطبقـات الكبير مجلد ٣ قسم / ٢ ص ٦٣ ط اوروبا ، وكتاب المعارف لابن قتيبة ١٥٩) .

(٢) ابى : اخ لحسان من أبيه ، وأمه عمرة بنت مسعود بن قيس ابن عمرو بن زيد مناة ، وقد أســـلمت وبايعت الرسول صلى الله عليه وسلم (انظر الطبقات الكبير لابن سعد المجلد الثامن ٣٣٠) ولم يخلف ابى عقبا . (انظر الطبقات الكبير المجلد الثالث قسم / ٢ ص ٦٣ ط أوروبا) .

وعرف لحسان أكثر من أخت ، اتفق الرواة فى اثنتين منهن وهما كبشة ولبنى بنتا ثابت بن المنذر [1] ، وقد أسلمتا وبايعتا الرسول وحسن اسلامهما . أما الأخريان وهما فارعة وخولة بنتا ثابت بن المنذر فقد اختلفت الروايات فيهما . فقد قيل ان فارعة عشقت عبد الرحمن بن الحارث المخزومى وفيه شعرها الذى منه : [2]

يا خليلى نابنى سهدى لم تنم عينى ولم تكد
كيف تلحونى على رجل آنس تلتذه كبدى
مثل ضوء البدر طلعته ليس بالزميلة النكد

وقيل ان خولة هى التى أنشدت تلك الأبيات متعشقة عمارة ابن الوليد المخزومى وهى كما ذكرها أبو الفرج الأصفهانى : [3]

يا خليلى نابنى سهدى لم تنم عينى ولم تكد
فشرابى ما أسيغ وما أشتكى ما بى الى أحد
كيف تلحونى على رجل آنس تلتذه كبدى
مثل ضوء البدر صورته ليس بالزميلة النكد
من بنى آل المغيرة لا خامل نكس ولا جحد
نظرت يوما فلا نظرت بعده عينى الى أحد

ونعرف من زوجات حسان ثلاثا ، اثنتين تزوجهما قبل الاسلام وهما عمرة بنت صامت بن خالد من الأوس ، وشعثاء

---

(١) أختان لحسان من ابيه وامهما سخطى بنت حارثه ابن عبدود (الطبقات الكبير المجلد ٨ : ٣٢٩ طبعة أوروبا) .
(٢) الأغانى ٣ : ٣٣ .
(٣) المرجع السابق ٣ : ٣٤ — ٣٥ .

بنت سلام بن مشكم اليهودى أو بنت كامن الأسلمية . وثالثة وهبها له رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى سيرين القبطية التى كانت هدية المقوقس حاكم مصر الى الرسول عليه السلام .

أما عمرة ، فقد أحبها حسان حبا عظيما وحدث أن أسر الأوس مخلد بن صامت الساعدى ، فتكلم حسان فى أمره بكلام أغضب عمـرة فعيرته بأخـواله وفخرت عليه بالأوس وهو الخزرجى المتعصب ، وكان يحب أخواله ويغضب لهم فطلقها ، فأصابها من ذلك شدة . وندم حسان بعد ذلك ندما شديدا [1] .

وقد شبب بها فى مطلع بعض قصائده وتحدث فيما شجر بينهما من خلاف وأظهر فى كل ذلك ألمه وندمه ، وان كان فى نفس الوقت يفخر بنفسه وأخواله الذين كانوا سببا فيما حدث له من كرب . يقول :

أجمعت عمـــــرة صرما فابتكر
انمـــا يدهن للقــلب الحصر [2]
لا يكن حبـك خبـــا ظاهرا
ليس هــذا منـك يا عمر بسر [3]
سألت حسان من أخـــــواله
انما يسأل بالشيء الغمــــر [4]

---

(١) المخطوطة رقم ٢٥٣٤ من الديوان بمعهـــد مخطوطـات الجامعة العربية . الورقة/٧٥ .
(٢) الصرم : الهجر . ابتكر : عجل . الادهان : الخضوع . الحصر : الضيق .
(٣) عمر : ترخيم عمرة .
(٤) الغمر : المجهول .

قلت أخــــــوالى بنو كعب اذا
أســـلم الأبطال عورات الدبر (١)

رب خـــــال لى لـــو أبصرته
سبط الكفين فى اليـوم الخصر (٢)

عنـد هـذا البـاب اذ سـاكنه
كل وجه حسن النقبـة حـــر (٣)

يوقد النـــار اذا مـــــا أطفئت
يعمل القـدر بأثبـــاج الجزر (٤)

من يغـــر الدهـــر أو يأمنــه
من قبيل بعد عمـرو وحجـر (٥)

ملكا من جبـــل الثـــلج الى
جانبى أيلة من عبـد وحـــر (٦)

---

(١) أسلم الأبطال عورات الدبر : انهزموا .

(٢) سبط الكفين : سخى وكريم . اليوم الخصر : الشديد البرد . يريد ان يقول أن اخواله كرماء فى وقت الشدة والعسر .

(٣) النقبة : الوجه .

(٤) يوقد النار اذا ما اطفئت : يطعم الأضياف والغرباء حين يبخل غيره من الجـدب والعسر . أثباج : جمع ثبج وهى أطايب الجزر . والجزور هى الناقة المذبوحة .

(٥) عمرو وحجـر من ملوك غســـان . وعمرو ، هو عمرو ابن الحارث بن عمرو بن عـدى بن حجر ابن الحارث الغسانى . وحجر : هو حجر بن النعمان بن الحـارث بن أبى شمر الغسانى .

(٦) جبل الثلج : بدمشق . وايله : مدينة فى فلسطين .

وعمرة هى التى شبب بهـا قيس بن الخطيم الأوسى غريم حسان ومهاجيه فى الجاهلية عندما قال : [1]

أجـد بعمـرة غنيانهـا فتهجر أم شـاننا شـانها

وذلك لأن حسان كان يشبب بأخت قيس ليلى بنت الخطيم فى شعره .

أما شعثاء فقد اختلف فى أمرها . قال بعض الرواة انها بنت سلام بن مشكم اليهودى [2] ، كان حسان يشبب بها دائما فى شعره ، ولا تفسر تلك الرواية نوع العلاقة التى قامت بينهما . وقال آخرون هى امرأة كانت تحت حسان [3] ، وهى بنت كامن الأسلمية من خزاعة [4] . وربما كان الرأى الأخـير أقرب الى الصواب . ففى نص بمخطوطة الديوان القديمة أن حسان تزوج امرأة من أسلم فولدت له غلاما . ويظهر أنه لم يكن على وفاق معها فقد قال فى ابنه .

غلام أتاه اللؤم من شـطر خاله
له جانب واف وآخـر أكشم

فقالت تجيبه :

غلام أتاه اللؤم من نحـو عمه
ومن خـير أعراق ابن حسان أسلم

---

(١) ديوان قيس بن الخطيم .
(٢) مخطوطة الديوان رقم ٢٥٣٤ الجامعة العربية .
(٣) اى زوجته .
(٤) الروض الأنف ٢ : ٢٨٠ للسهيلى .

بقيت الزوجة الثالثة لحسان وهى هبة الرسول اليه وهدية حاكم مصر الى الرسول وأخت مارية زوج النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد أخلف حسان من سيرين ابنه الشاعر المشهور عبد الرحمن الذى ورث الشعر عن والده واستمر يحمل لواءه مدة فى العصر الأموى .

وعبد الرحمن أوضح أبناء حسان شخصية فى التاريخ [1] وكان شاعرا روى شعر أبيه كما كان محدثا وممن ضمه بعض العلماء الى الثقات . واختلف فى سنة وفاته وفى عدد سنى عمره . والمشهور أنه ولد فى عصر الرسول ، وتمتد أخباره الى أواخر القرن الأول وأوائل الثانى الهجرى ، ومعنى ذلك أنه يصعب قبول الرواية التى تقول انه عاش حوالى ثمانية وأربعين عاما ، فلعل الأربعين محرفة [2] .

وقد أخلف عبد الرحمن بن حسان أبناء عدة أشهرهم جميعا سعيد بن عبد الرحمن وكان شاعرا أيضا [3] ، وكنى أبوه باسمه .

ويذكر الرواة أن لحسان ابنتين ، أولاهما أم فراس [4] وهى من زوجة شعثاء التى عرّفنا بها من قبل ، ولا نجد من أخبارها

---

(١) انظر تهذيب التهذيب ٦ : ١٦٢ لابن حجر ، الطبقات الكبير لابن سعد مجلد ٥ ص ١٩٦ .

(٢) انظر تهذيب التهذيب لابن حجر .

(٣) بناؤه كما جاء فى الطبقات : الوليد واسماعيل وأم فراس وامهم أم شيبة بنت السائب بن يزيد ، ثم حسان بن عبد الرحمن والفريعة .

(٤) الروض الانف ٢ : ٢٨٠ .

شيئا مذكورا . أما الأخرى فهى ليلى بنت حسان ، فقد روى ابن عساكر فى تاريخه [1] عن الأصمعى انه كان لحسان ابنة تدعى « ليلى » وحدث يوما أن كان حسان جالسا فبدا له أن يقول الشعر فقال :

أنمى الى أفناء عمـــرو وعامـــر
سمت لمعاليها وعزت كهـــــولها

متاريك أذناب الأمـــور اذا التوت
أخذنا الفروع واجتثثنا أصـــولها

الى أسرة طابت وعولى فرعهـــــا
فليس لفرع غيرها أن يطولهـــــا

ثم انقطع ، فقالت له ابنته من الخدر : كأنك قد انقطعت ! فقال : نعم ! فاثنت تقول :

مقاويل بالمعروف خرس عن الخنا ،
كرام يعاطون العشـــيرة سولها

فقال حسان :

وقافية عجت بليـــــــل ثقيـــلة
تلقيت من جـــو الســـماء نزولها

يهاب الذى لا ينطق الشعر سؤلهـــا
ويعجز عن أمثالها أن يقولهـــــا

(١) تاريخ ابن عساكر ٤ : ١٣٤ .

ثم أظهر غضبا على ابنته لنظمها الشعر وقال : لهممت أن أحلف، أن لا أقول بيت شعر ما دمت حية . فقالت : أنا آؤمنك ! والله لا أقول بيت شعر ما صحبتك !!

فالى جانب أن هذه الرواية تشير الى وجود ابنة له تدعى « ليلى » فانها تبين ظاهرة أخرى فطن اليها القدماء وهى اشتهار بعض الأسر بنظم معظم أفرادها للشعر وتوارثهم له أمثال أسرة زهير بن أبى سلمى وأسرة حسان بن ثابت !

ويظن أن لحسان ابنا يسمى الوليد ، فقد كان يكنى بأبى الوليد ، واشتهر بذلك ولكن الرواة لم يذكروا من شأن هذا الابن شيئا (١) .

(ب) شخصيته :

قد يكون من المتناقض أن نتحدث عن شخصية حسان فى هذا الفصل والكتاب كله يهدف الى تصوير هذه الشخصية فى جاهليتها وفى اسلامها بطريقة تختلف فى أسلوبها عما حاوله القدماء عندما عددوا بعض صفات هذه الشخصية ، غير أن ما أبغى تصويره ومناقشته هنا خاصة ناحيتان : أولاهما صفاته الجسمانية التى جاءت متفرقة عند الرواة فى أخباره ، وأخراهما تلك المسألة التى شغلت الدارسين القدماء منهم والمحدثين وهى الصاق تهمة الجبن بهذا الشاعر ومدى صحة هذا الاعتقاد .

ذكر الرواة أنه كان لحسان ناصية يسدلها بين عينيه ،

---

(١) قد يكون هذا الابن من زوجه من أسلم وهو الذى هجا حسان من خلاله أخواله وردت عليه زوجة هاجية أعمامه .

وكان يضرب بلسانه روثة أنفه من طوله ويقول : ما يسرنى به مقول أحد من العرب ، والله لو وضعته على شعر لحلقه أو على صخر لفلقه . ثم كان يخضب شاربه وعنفقته بالحناء ، ولا يخضب سائر لحيته . وقد سأله ابنه عبد الرحمن يوما : يا أبت لم تفعل هذا ؟ فقال : لأكون كأنى أسد والغ فى دم [1] .

والجزء الأول من هذه الرواية يتصل بنفوذه فى الجاهلية ومدى خوف العرب من أهاجيه ، فان اللسان الذى يحلق الشعر ويفلق الصخر لسان تخافه القبائل ، وتحسب له ألف حساب . فترضى صاحبه ، وتحرص على أن تتقى شره ، وهذا ما سوف تؤكده فى هذا الكتاب .

أما أنه كان يخضب شاربه وعنفقته بالحناء ليكون كالأسد الوالغ فى الدم فهذا ما حاول الدارسون أن يتخذوه وغيره مظهرا من مظاهر الجبن . وقد روت أيضا صفية بنت عبد المطلب رضى الله عنها أنها كانت فى فارع — أطم حسان [2] — يوم الخندق . وقالت : كان حسان معنا فيه والنساء والصبيان ، فمر بنا رجل من يهود فجعل يطيف بالحصن ، وقد حاربت بنو قريظة وقطعت ما بينها وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس بيننا وبينهم أحـد يدفع عنـا ، ورسول الله والمسلمون فى نحور عدوهم لا يستطيعون أن ينصرفوا الينـا عنهم ، اذ أتانا آت فقلت : يا حسان ان هذا اليهودى كما ترى يطيف بالحصن ، وانى والله

---

(١) الأغانى ٤ : ١٣٥ .
(٢) الأطم : الحصن .

ما آمنة أن يدل على عوراتنا مَن وراءنا من يهود ، وقد شغل عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فانزل اليه فاقتله . فقال : يغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب . لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا . فقالت : فلما قال ذلك ولم أر عنده شيئا احتجزت [1] ، ثم أخذت عمودا ثم نزلت اليه من الحصن فضربته بالعمـود حتى قتلته . فلما فرغت منه رجعت الى الحصن فقلت : يا حسان انزل اليه فاسلبه فانه لم يمنعنى من سلبه الا أنه رجل . فقال : مالى بسلبه من حاجة يا بنت عبد المطلب ! [2] .

وقد وردت روايتان أخريان تمثلان موقف حسان من القتال وتشبهان الى حد كبير موقفه من القتال فى الرواية السابقة . تقول الرواية الأولى ان يهوديا جاء ليرتقى الحصن فقالت صفية لحسان : أعطنى السيف . فأعطاها ، فلما ارتقى اليهودى ضربته حتى قتلته ثم احتزت رأسه فأعطته لحسان وقالت طوِّح به ، فان الرجل أقوى وأشد رمية من المرأة . وكأنها تريد أن ترعب بذلك حسان [3] . أما الرواية الأخرى فتذكر أن حسان كان ضاربا فى آخر أطمه وتدا فاذا حمل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على المشركين حمل الوتد فضربه بالسيف ، واذا أقبل المشركون انحاز عن الوتد حتى كأنه يقاتل قرنا . وكأنه يتشبه بالمجاهدين فى شجاعتهم [4] .

---

(١) احتجز بردائه اى شده على وسطه .
(٢) الأغانى ٤ : ١٦٥ ــ ١٦٦ ، تاريخ الطبرى ٣ : ٥٠ .
(٣) الأغانى ٤ : ١٦٦ .
(٤) الأغانى .

ولا شك أن هذه الأخبار جميعا — ان كانت تدل على شيء — فانما تدل على أنه كان يخاف أن يشترك فى قتال وخاصة اذا عرفنا أنه لم يساهم فى غزوة من غزوات الرسول قط . فهل هذا الخوف من أن يدخل فى معركة من المعارك يعتبر جبنا ؟ ألا يمكننا أن نقول ان هناك علة أخرى تمنعه من الاشتراك فى الحرب ؟ قد يكون السن هو السبب . فهذه الأخبار جميعا رويت عن حسان وقد بلغ الستين على الأقل . ورجل فى الستين من عمره قد يضعف عن أن يدخل حربا أو يساهم فى قتال . غير أن هناك علة أخرى أشار اليها صاحب الأغانى تقول ان أكحل [1] حسان كان قد قطع فلم يكن يضرب بيده [2] وقال الواقدى مدافعا عن حسان وعن تهمة الجبن الموجهة اليه [3] ان قومه كانوا يدفعون أن يكون جبانا ولكنه أقعده الحرب أن أكحله قد قطع فذهب منه العمل فى الحرب ، ويؤيد هذا الرأى قول حسان نفسه :

أضر بجسمى مر الدهـــور وخان قراع يدى الأكحل [4]
وقد كنت أشهد وقع الحروب ويحمر فى كفى المنصـــل

ويناصر الأصمعى حسان بن ثابت ويدفع عنه تهمة الجبن فيقول : الدليل على أن حسان لم يكن جبانا أنه كان يهاجى خلقا فلم يعيره أحد منهم بالجبن .

---

(١) الأكحل : عرق فى اليد « الفاضل للمبردص ١٣ » .
(٢) الأغانى ٣ : ١٦٦ .
(٣) تاريخ ابن عساكر ٤ : ١٢٦ .
(٤) الأكحل : عرق فى اليد .

وجدير بالملاحظة أن الوقائع التى استشهد بها الاخباريون على جبن حسان كلها وقائع اسلامية ، وعلى هذا يمكن أن نرجح أن قطع أكحل حسان حدث فى الجاهلية أو قبل دخوله فى الاسلام ولا شك أن مثل هذا السبب الى جانب كبر سنه وضعف روح المغامرة عنده يجعله حذرا متمهلا فى الوقت الذى نجد فيه شباب المسلمين وشيوخهم مندفعين بقوة الدين وبروح الرسـول نحو الجهاد الذى كان المظهر الحقيقى للمسلم المؤمن فى هذه الفترة .

وكان احجام حسان عن الاشتراك فى كل قتال ينشب وكل غزوة يخرج اليها المسلمون سببا فى أن بعض المسلمين كانوا يضحكون منه اذا وصف نفسه فى قتال أو افتخر بشجاعة أو بطولة . فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعه ينشد :

لقد غدوت أمـام القـوم منتطقا
بصـارم مثـل لون الملح قطاع
يخفز عنى نجاد السيف سـابغة
فضفاضة مثل لون النهى بالقاع [1]

فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم فظن حسان أنه ضحك من صفته لنفسه بصفات البطـولة مـع اشتهاره بين المسلمين بجبنه [2] .

---

(١) نجـاد السيف : حمائله . ودرع سـابغة وفضفاضة : واسعة . النهى : الغدير . القاع : الصحراء .

(٢) الأغانى ٤ : ١٦٦ — ١٦٧ .

الفصل الثالث
شعر حسان الجاهلي

حسان والنقاد القدماء :

يتضح لمتتبع أخبار حسان قبل الاسلام ولدارس شعره أنه من الشعراء الذين ازدوج مظهر حياتهم الاجتماعية فى الجاهلية ، فهو شاعر قبلى يفخر بقبيلته وبنفسه ، وكلاهما شيء واحد فقبيلته تحقق له ذاته ، وذاته تضيف الى القبيلة عنصرا من عناصر شخصيتها ، ثم هو فى نفس الوقت شاعر مداح ، يقدم الغير على نفسه ليتكسب أموالهم ويؤخر ذاته عن الغير لينال رضاءهم .

وقد عاش حسان فىفترةازدهرفيها كل من الفنين : فن الشعر القبلى وفن شعر المديح ؛ ازدهر الفن الأول لاشتعال ضرام القتال فى هذه الفترة ، والتهاب العصبيات القبلية التى تعقدت مسبباتها ، فلم تعد هناك قبيلة لا تحمل للأخرى ثأرا ، وازدهر فن المديح لثراء المملكتين الشماليتين فى الحيرة وفى غسان لارتباطهما بالتحضر الفارسي والتحضر البيزنطى ، وتولى الحكم فيهما أعظم ملوكهما منذ نشأتهما .

ونظرة واحدة الى كتاب النقائض والى أيام الجاهليين فيه توضح ضخامة تراث المعارضات القبلية وما يمكن أن يصلنا منها

لو نجح الرواة فى تدوينها أو نجح الزمن فى المحافظة على توصيلها ، كذلك يظهرنا على روعة تلك القصائد التى تشيد بأمجاد القبائل وانتصاراتها وكثرة من اشتهروا بها من الشعراء القبليين أمثال قيس بن الخطيم وعمرو بن الاطنابة وأبى قيس ابن الأسلت . أما شعر المديح فقد ظهر أعظم منشديه فى هذه الفترة أيضا ورددت الجزيرة أجلى أنغامهم ، فكانت قصائد زهير والأعشى والنابغة تجوب الجزيرة مصورة أشرف المثل الخلقية العربية .

ويتساءل الباحث أين كان حسان بين كل هؤلاء ؟ هل اعترف له النقاد بمكانة بين شعراء القبائل ، أو اعترفوا له بمكانة بين شعراء المديح ؟ هذا ما سوف ننظر فيه .

وأول ما نحب أن نعرض له رأى النقاد القدماء فيه وفى شعره .

انقسم رأى القدماء فى حسان قسمين : قسم يحكم عليه حكما مطلقا ، وقسم آخر يحكم على شعره ويقارن بين جودته فى الجاهلية وسقوطه فى الاسلام .

أما القسم الأول فعن أبى عبيدة قال : فضل حسان الشعراء بثلاث : كان شاعر الأنصار فى الجاهلية وشاعر النبى صلى الله عليه وسلم فى النبوة وشاعر اليمن كلها فى الاسلام [1] .

وعنه أيضا قال : اتفقت العرب على أن أشعر أهل المدر أهل

---

(1) الأغانى ٤ : ١٢٦ .

يثرب ثم عبد القيس ثم ثقيف ، وعلى أن أشعر أهل يثرب حسان ابن ثابت [1] .

ويشبه قول أبى عبيدة هذا قول أبى عمرو بن العلاء والحطيئة والزبير بن بكار [2] ؛ فأبو عمرو بن العلاء يقول : أشعر أهل الحضر حسان بن ثابت [3] والحطيئة يقول : أبلغوا الأنصار أن شاعرهم أشعر العرب [4] ، أما الزبير فيروى عن أبى غزيه قوله عن حسان بن ثابت : هو شاعر الأنصار وشاعر اليمن وشاعر أهل القرى ، وأفضل ذلك كله أنه شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مدافع [5] .

وقد حاول بعض الرواة أن يوازن بينه وبين آخرين ، فعن أبى الفرج قال : قال حسان بن ثابت : جئت نابغة بنى ذبيان فوجدت الخنساء بنت عمرو حين قامت عنده ، فأنشدته فقال : انك لشاعر وان أخت بنى سليم لبكاءة [6] .

كذلك تهاجى الحطيئة ومزرد أخو الشماخ وكلاهما شاعر كبير ، فقال مزرد يقلل من قيمة الحطيئة :

فلست كحسان الحسام بن ثابت
ولست كشماخ ولا كالمخبل [7]

---

(1) المرجع السابق ١٧٣ .
(2) الزبير بن بكار : له كتاب فى أخبار حسان مفقود (انظر فهرست ابن النديم) .
(3) تهذيب التهذيب ٢ : ٢٤٧ . (4) المرجع السابق .
(5) مجالس ثعلب ٢ : ٤٢٩ . (6) الأغانى ٤ : ١٦٧ .
(7) المخبل : هو المخبل السعدى شاعر جاهلى .

وقد عُرف لحسان فهمه للشعر ومعرفته لطرقه وأساليبه ، فكان يُسأل فيه . فقد استشاره عمر بن الخطاب فى شعر للحطيئة هجا به الزبرقان بن بدر هل هو هجاء . فقال حسان : لم يهجه ولكن سلح عليه . فحبس عمر الحطيئة قائلا له : يا خبيث لأشغلنك عن أعراض المسلمين (١) .

أما القسم الآخر فقد روى فيه عن الأصمعى ثلاث روايات فى ثلاثة مصادر تختلف فى ألفاظها وتلتقى فى دلالاتها . الرواية الأولى تقول : الشعر نكد يقوى فى الشر ويسهل ، فاذا دخل فى الخير يضعف ، هذا لأن حسان كان من فحول الشعراء فى الجاهلية فلما جاء الاسلام سقط شعره (٢) .

والرواية الثانية تقول : شعر حسان فى الجاهلية من أجود الشعر فقطع متنه فى الاسلام لحال النبى صلى الله عليه وسلم (٣) .

والرواية الأخيرة تقول : طريق الشعر اذا أدخلته فى باب الخير لان ، ألا ترى أن حسان بن ثابت كان علا فى الجاهلية والاسلام فلما دخل شعره فى باب الخير من مراثى النبى صلى الله عليه وسلم وحمزة وجعفر رضوان الله عليهما لان شعره ، وطريق الشعر هو طريق الفحول مثل امرىء القيس وزهير والنابغة فى صفات الديار والرحل والهجاء والمديح والتشبيب بالنساء وصفة الحُمُر والخيل والحروب والافتخار فاذا أدخلته فى باب الخير لان (٤) .

---

(١) الشعر والشعراء ١٨٦ .

(٢) أسد الغابة ٢ : ٤ .

(٣) الشعر والشعراء ١٧١ .   (٤) الموشح ٦٢ .

وقيل لحسان : لان شعرك وهرم يا أبا الحسام . فقال للسائل: يا بن أخى ان الاسلام يحجز عن الكذب . يعنى أن الاجـادة فى الشعر تستدعى الافراط الذى يقوله وهو كذب يمنع الاسلام عنه فلا يجىء الشعر جيدا (١) .

تلك هى القضايا التى أثارها الرواة والنقاد القدماء حـول شعر حسان ، وكطبيعتهم دائما يحملون هذه القضايا معانى عامة ، ولا يقومون بدراستها دراسة تطبيقية . وسوف ننظر فى هـذه القضايا جميعا وفى غيرها من خلال شعره .

ا ـ حسان الشاعر القبلى :

لا نكاد نظفر بأخبار تتصل بحياة حسان فى الجاهلية ، كيف نشأ وكيف نطق الشعر ثم ما هى الأحداث المهمة التى شـارك فيها ؟ . فاذا عرفنا أن هذا الشاعر عاش ما يقرب من ستين عـاما جاهليا مشركا قبل دخوله الدين الجديد على يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه يمكننا أن نحس بهذا النقص الذى يعترى تصوير هذه الشخصية فى أهم فترة من حياة الانسان وهى الفترة التى ينضج فيها تفكيره وتتحدد ملامح شخصيته ، وتنمو فيها مواهبـه .

ويلجأ الباحث عندئذ الى ما بقى من شعره الجاهلى يبحث فيه عن أبعاد هـذه الشخصية عسى أن يلمس فيه مبتغاه ، وهنا

---

(١) أسد الغابة ٢ : ٤ .

نجد أن هـذا الشـعر — على قلته — ورغم ما وقع فيه من اضطراب — يصور بعدين أساسين فى شخصيته القبلية أولهما أنه لسان حال الخزرج المناقض لشعراء منافسيها وأعدائها من القبائل الأخرى وخاصة القبائل الأوسية ومناصريها ، وآخرهما يبرز شخصيته المعتدة بنفسها المفـاخرة بأمجاد ذويها ، والتى تحاول أن تتفوق بفرديتها وخصالها على الخصوم والمنافسين .

نلمح البعد الأول لهذه الشخصية فيما شجر من مناقضـات بين حسان كشاعر للخزرج وبين قيس بن الخطيم كشاعر للأوس ، وقد استطاع حسان أن يشيد بأيام الخزرج ويقف من قيس موقف الند للند ، وخير مثال على ذلك قصائده يوم الربيع ويوم خطمة ويوم بعاث ، وهى نقائض تثبت مقدرته وامتيازه .

حدث أن اقتتلت الأوس والخزرج قتالا شديدا بالربيع (١) حتى كادوا يتفانون بعد أن وضعوا أبناءهم ونساءهم فى الحصون، واستمر الموقف متحرجا بينهما حتى لم يعد الرجل يأمن أن يخرج من حصنه الى عمل يقضيه خوفا من القتـل ، ثم دعت الأوس الخزرج الى الصـلح ، فأبت بنو النجار من الخزرج . وحالوا بين الفريقين وبين الصلح حتى كثر فيهم القتل ، ثم كف بعضهم عن بعض ، وان بقوا على عداوتهم وتشاحنهم ، فقـال حسان شاعر الخزرج ورجل بنى النجار قصيدته :

لقد هاج نفسك أشـجانها ... وعاودها اليـوم أديانها

---

(١) اسم مكان .

فرد عليه قيس بن الخطيم شاعر الأوس معارضا :

أجــــد بعمــــرة غنيانها	فتهجر أم شأننا شــــانها

ويتضح لمن يقرأ قصيدة حسان أنها لم ترو كاملة فهو فى بيتين يقف موقف المتذكر لأحبائه ، المتطلع لهواه القديم ، ثم ينتقل الى بيتين آخرين يصف فيهما واديا صعب الاختراق قطعه الشــاعر رغم عزيف الجن فيه ، فوق ناقة هوجاء يسألها عن حال حبيبته وقد رحل أهلها عن الديار ، ثم تأتى أبيات يتحدث فيها بلسان قومه معددا للأوس أمجادهم كما يحبها الضمير القبلى ، فهم كرماء وقت القحط ، يوم يبخل الناس جميعا ، وهم ليوث ساعة المعركة حينما يجبن الشجعان عن خوض ميدانها . يقول :

ويثرب تعلم أنّا بهــــــا | اذا التبس الحق ميزانهــــا
ويثرب تعلم أنّا بهــــــا | اذا قحط القطــر نوءانها (١)
ويثرب تعلم أنّا بهــــــا | اذا خافت الأوس جــيرانها
ويثرب تعلم أن النبيـــــــ | ـت عند الهزاهــز ذلانها (٢)
نبت بالنبيت وأشــــياعها | من ان أوعدت قط أرطانهــا
فكيف اذا نازلتهــــــــا | ليوث غريف وشـــبلانها
متى ترنا الأوس فى بيضــــنا | تهز القنا تَخْبُ نيرانهــا (٣)
وتعط المقــــاد على رغمها | وينزلْ مِنَ الهــام عصيانها
ويثرب تعلم أن النبيـــــــ | ـت ليست بشىء وأعــوانها

---

(١) نوءانها : مطرها .
(٢) الهزاهز : الشدائد .
(٣) بيضنا : سلاحنا .

فلا تفخرن والتمس ملجـــأ   فقد عـــاد للأوس أديانهـــا
ونحن اذا حاربت عــــامر   أمـــام الكتيبة أعيــانها

فاذا نظرنا بعد ذلك فى مناقضة قيس لهذه القصيدة نجد أن أول ما يبدأ به غزل فى عمرة بنت صامت بن خالد زوج حسان يستغرق منه خمسة أبيات ينتقم منه فى التشبيب بها على طريقة الجاهليين ، فرغم أنه يصفها بأوصاف جميلة الا أن ذلك يضايق العربى الشريف مضايقة شديدة .

يقول فيها قيس :

فما روضـــة من رياض القطا   كأن المصـــابيح حوذانها (١)
بأحسن منها ، ولا مـــزنة   دلوح تكشف أدجـــانها (٢)
وعمرة من سروات النســـا   ء تنفح بالمســـك أردانها (٣)

وينتقل قيس فجأة الى الفخر بلسان قومه كما فعـــل حسان رادًّا عليه بقوله :

نحن الفـــوارس يوم الربيـــ   ـع قد علموا كيف فرسانها (٤)
جنبنـــا الحـــراب وراء الصريـ   ـخ حتى تقصف مـــرانها (٥)

ثم يرد على بيت حسان الذى فيه :

---

(١) الروضة : البقعة يجتمع فيها الماء فكثير نبتها . الحوذان : نبت طيب الريح .
(٢) المزنة : الســحابة البيضـــاء. دلوح : كثيرة الماء. تكشف أدجانها : تكشف ظلمتها وذلك بانزالها ما تحمل من الماء .
(٣) أردانها : أعطافها .
(٤) الربيع : الجدول الصغير .
(٥) جنبنـــا الحراب : حملوا حرابهم بأيديهم الى جنوبهم . الصريخ : المستغيث . المران : الرماح .

فكيف اذا نازلتهـــــا ليوث عزيف وشبلانها

فيقول :

فلما اســـتقل كليث الغريف زان الكتيبة أعـوانها [1]

تراهن يخلجن خلج الدلاء تختلج النزع أشـــطانها [2]

الى أن يقول مدافعا عن النبيت الذين هاجمهم حسان :

ويثرب تعـــلم أن النبيت راس بيثـــــرب ميـــزانها

حسان الوجوه حداد السيو ف يبتدر المجـد شـــبانها

ثم يفتخـر قيس بكرم قومه كما افتخر حسان ولكن ليس بصورة حسان الذى جعل قومه يكرمون الناس حتى فى أيام القحط ولكن بتلك الصورة الجاهلية حين يفخر العــرب بأنهم يهينون أموالهم فى سبيل الخمر ويصرفون أموالهم عليها فيقول :

وبالشوط من يثرب أعبـــد ســتهلك فى الخمـر أثمانها

يهون عـلى الأوس أثمانهم اذا راح يخطر نشــــوانها

ومن أشهر المعارضات التى رد بها حسان على شاعر الأوس قيس بن الخطيم معارضته التى مطلعها :

ما بال عينى دمــــوعها تكف

من ذكر خود شطت بها قذف [3]

وذلك حين هجاه قيس بقصيدته التى أولها :

---

(1) الغريف : الأكمة وكل شجر ملتف .

(2) الأشـــطان : الحبال . يصور حركة الحراب فى الطعن والنزاع فيشبهها بحبال الدلاء وهى تختلج أثناء نزعها من البئر .

(3) تكف : تسـيل . الخـود : الشـابة الناعمة . القذف : البعيدة .

رد الخليط الجمـــــال فانصرفوا
ماذا عليهم لو أنهم وقفـــوا [1]

ان قيسا يبدأ قصيدته بثمانية عشر بيتا يصف فيها صاحبته ويقول فيها :

فيهم لعـــــوب العشاء ، آنسة الـ
ـدل ، عروب ، يسوءها الخلف [2]
بين شكول النســـاء خلقتهــــا
قصد فلا جبـــلة ولا قضف [3]
قضى لها الله حـــين يخلقهـا الـ
ـخالق ألا يكنها ســــدف [4]
تنــــام عن كبر شـــأنها فاذا
قامت رويدا تكاد تنغـــرف [5]
حوراء ، جيـــداء ، يستضاء بها
كأنها خـــوط بانة قصـــف [6]

---

(١) الخليط : المخالط لهم فى الدار . ردوا جمالهم من الرعى ليرتحلوا .
(٢) لعوب العشاء : اى تسهر مع السمار وتلهو .
(٣) الشكول : الضروب . جبلة : غليظة . القضف : الدقة والنحافة .
(٤) ســدف : ظلمة . يقول اذا كانت فى ظلمــة ابصرت ولم تسترها الظلمة .
(٥) تنغرف : تسقط .
(٦) الحوراء : شــدة سواد الحــدقة مع شدة البياض . الجيداء : الطويلة العنق : خوط : قضــيب : قصــف : خوار ناعم يتثنى .

تمشي كمشي الزهـــراء في دمث الـ
رمل الى السهل دونه الجـرف (١)
ولا يغث الحـــديث ما نطقـــته
وهـــو بفيها ذو لـــذة طـــــرف
تخـزنه وهـــــو مشتهى حسن
وهـــــو اذا ما تكلمت أنف (٢)
كأنهــــا درة أحـــاط بهـــا الـ
غواص يجلو عن وجهها الصدف (٣)

حتى ينتهي الى قوله :

انى لأهـــواك غـــير ذي كذب
قد شف مني الأحشاء والشغف (٤)

وينتقل قيس بعـد هـذا المقطع الطويل الى الفخر القبلي المألوف الذي يقول فيه :

أبلغ بني جحجبى وقـــــومهم
خطمـــة أنـــا وراءهم أنف (٥)
وأنا دون ما يســـــومهم الأعدا
ء من ضـــيم خطـــة نكف (٦)

---

(١) الزهراء : البقرة البيضـــاء . الدمث : اللين . الجرف : ما تجرفته السيول .
(٢) أنف : مستأنف . اى ترسل الحديث دون تكلف .
(٣) يريد ان الصدف انفرج عنها فابرز وجهها واظهر جلاءه
(٤) الشغف : غلاف القلب .
(٥) أنف : شديد الأنفة وهو الذي تأخذه الحمية والنخوة :
(٦) نكف : نستنكف .

لفلى بحـــد الصفيح هـــامهم
وفلينا هامهم بنــــا عنف (١)
انا ولو قدمــــوا التى علمـوا
آكبـــادنا من ورائهم تجف (٢)
لما بدت غـــــدوة جبـــاههم
حنت علينا الأرحــام والصحف (٣)
كقيلنا للمقـــــدمين : قفـوا
عن شأوكم ، والحراب تختلف (٤)
يتبــــع آثارها اذا اختــلجت
سخن عبيط عــــروقه تكف (٥)
قال لنا النــاس : معشر ظفــروا
قلنا : فأنى بقـــــومنا خلف
لنـــا مع آجامنـــا وحـوزتنا
بين ذراهـــا مخارف دلف (٦)
يذب عنهن ســــــامر مصع
ســود الغواشى كأنهــا عرف (٧)

---

(١) فلاه بالسيف : اذا علاه . يقول : قتلنا اياهم عنف منــا لأنهم قومنا وبنو عمنا .
(٢) يقول : وان كانوا قــدموا ما قدموا مما ننــكر فانا نشفق عليهم . (٣) الصحف : العهود .
(٤) الشأو : السبق .
(٥) اختلجت : جذبت . سخن عبيط : دم ساخن .
(٦) مخارف دلف : نخل يخترف منه . والاختراف : لقط لمر النخل يابسا أو رطبا . (٧) سود الغواشى : يعنى الغربان.

وحينما بدأ حسان فى معارضته لقيس ، نجده مضطرا لأن يبدأ كما بدأ قيس : نسيب جاهلى وان كان خاليا من حـرارة الانفعال أو تدفق العاطفة ولا يصبر على ذلك طويلا فبينما قيس يستغرقه النسيب فى ثمانية عشر بيتا نجد حسان لا يستغرقه هذا النسيب أكثر من أربعة أبيات ثم ينفذ صبره ، ويتضح ذلك فى البيت الخامس الذى يريد أن يتخلص فيه من هذا النسيب فجأة ودون رغبة فى الاستمرار فيه وذلك حين يقول :

دع ذا وعد القريض فى نفر مالهم غـــير سبتى شرف

ثم يبدأ مهاجاة بطون الأوس والفخر بقومه قائلا :

كنتم عبيـــدا لنا نخـــولكم
من جاءنا والعبيـــــد تضطعف
كيف تعاطون مجدنا ســـفها
وأنتم دعوة لهـــا وكف [1]
شـــانكم جدكم وأكرمنـــا
جـــد لنا فى الفعـال ينتصف
نجعل من كان المجـــد محتده
كأعبد الأوس كلما وصـــفوا
هلا غصبتم لأعبـــد قتلوا
يوم بعــــاث أظاهم ظلف [2]
وكم قتلنـــا من رأس لكم
فى فيلق يجتـــدى له التلف

---

(١) الوكف : العيب والنقص . (٢) الظلف : الشدة .

ومن لئيم عبـــــــد يحالفكم
ليست له رتبـــــــة ولا أنف
تقتلهم والســـيوف تأخـــذهم
أخـذا عنيفـــا وأنتم كشف [1]

وهناك مناقضة أخرى اشتهرت فى الشعر الجاهـــلى بين الشاعرين وذلك يوم السرارة . فقد حدث أن رجلا من الخزرج لقى رجلا من الأوس خارجا من بئر أريس عند قريب له ، ومع الخزرجى قوس له ونبل فرمـــاه فقتله ، فلما بلغ الأوس مقتـــل صاحبهم ليلا قتلوه داخل بيته ، وكان لا يقتل رجل فى داره ولا فى نخلة فرأت الخزرج مقتل صاحبهم . فقالوا والله ما قتل صاحبنا الا الأوس ، فخرجوا اليهم وخرجت الأوس نحوهم بالسرارة ، فاقتتلوا بها أربعة أيام حتى نال القتل كلا الفريقين ، كل واحد من صاحبه كيف شاء . فقال قيس بن الخطيم قصـيدته التى مطلعها :

تروح من الحسناء أم أنت مغتدى
وكيف انطلاق عاشـــق لم يزود

ورد حسان عليها بأبياته التى أولها :

لعمر أبيـــك الخير يا شعث ما نبا
علىّ لسانى فى الخطوب ولا يدى

فاذا قارنا بين القصيدتين نجد أن قصيدة قيس تبدأ بمقدمة

---

(1) وانتم كشف : وانتم مهزومون .

غزلية يصف فيها صاحبته وصفا مألوفا بمقلتين بريئتين وجيد صاف مزين . يقول

تراءت لنا يوم الرحيل بمقلتي
غرير بملتف من السدر مفرد [1]

وجيد كجيد الرئم صاف يزينه
توقد ياقوت وفصل زبرجد

كأن الثريا فوق ثغرة نحرها
توقد فى الظلماء أي توقد

ولا يستطيع حسان أن ينتظر طويلا فى الرد على قيس فنراه يذكر صاحبته فى بيت واحد قائلا : ان لسانه ويده لن يمتنعا عن الرد على قيس ، ويحوّل حسان حديثه الى صاحبته من وصفه لجمالها وتأثير لحبها فى نفسه الى حديث عن القتال والشعر وقدرته عليهما :

لعمر أبيك الخير يا شعث ما نبا
على لسانى فى الخطوب ولا يدى

لسانى وسيفى صارمان كلاهما
ويبلغ ما لا يبلغ السيف مذودى

ويرسم قيس بعد مقدمته صورة للقتال مفزعة تقطر بالدماء وتمتلىء بالجثث يتربص فيها الموت خلال كل خط من خطوطها فيقول :

---

(1) غرير : يريد ظبيا . والغرة : قلة التجربة . السدر : شجر النبق .

ألا ان بين الشرعبى وراتـــــج
ضرابا كتخذيم السيال المعضد [1]
لها حائطان الموت أسـفـل منهما
وجمع متى يصرخ بيثرب يصـعد
ترى اللابة السوداء يحمر لونهـــا
ويسـهل منها كل ريع وفدفد [2]
لعمرى لقد حالفت ذبيـــان كلها
وعبسا على ما فى الأديم الممدد [3]
وأقبلت من أرض الحجـاز بحلبة
تغم الفضاء كالقطا المتبـــدد [4]
تحملت ما كانت مزينـــة تشتكى
من الظلم فى الأحلاف حمل التغمد

لقد كانت معركة مريرة قاسية تحصد السيوف الرءوس فيها كما يحصد المنجل زهور السـيال ، قد أحاط جدارا المـوت بالمقاتلين فلا مهرب لهم منه ، وهو فاغر فاه يتلقف الضحايا غذاء شهيا له ، وكانت صرخاتهم فى يثرب تملأ الآفاق . لقد اختضبت

---

(١) الشرعبى وراتج : حصنان فى يثرب. التخذيم : التقطيع. السيال : شجر له شوك ابيض . المعضد : المقطع .

(٢) اللابة : الأرض التى بهـــا حجارة سوداء . يسهل : اى نزل منها الدم . الريع : المرتفع . الفدفد : فيه صلابة وحجارة .

(٣) الأديم الممدد : الكتاب الذى قد مـد . اى كتبوا كتبا وتحالفوا على ما فى الصحف .

(٤) الحلبة : الجماعة من الخيل . القطا : نوع من الطير .

الحرات السوداء بالدماء فتحولت حمراء من كثرتها . ولم تكن الأوس وحدها فى المعركة بل لقد أعانتها قيس بكتيبة عظيمة تملأ الفضاء كطيور القطا المنتشرة . أما فى أبيات حسان فلا نجد فيها وصفا للمعركة كما فى أبيات قيس، وانما شغل بالفخر بنفسه وبأقربائه من ملوك غسان ، فهو ان سئل على الاملاق تكلف العطاء فحمد ، وان كثر ماله فان الثراء لا ينسيه واجبه من العفة والحياء ، وان صروف الدهر ونوازله لا تقعد به عن أداء الواجب من القرى والعطاء ، وأخيرا يهدد قيسا بأنه سيلقى أسودا مسلحة بالرماح والسيوف . يقول :

فلا المـــال ينسينى حيائى وحفظتى
ولا واقعات الدهر يفللن مبـــردى
أكثر أهـــــلى من عيـــال سواهم
وأطوى على الماء القراح المبرد (١)
اذا كان ذو البخل الذميمـــة بطنه
كبطن الحمار فى الخلاء المقيـــــد
وأعمـــــل ذات اللوث حتى أردها
اذا حط عنها جلسها لم تقيـــد (٢)

الى أن يقول :

---

(١) يقول : ابيت جائعا مكتفيا بالماء ايثارا على نفسى كما أضم الى أهلى غيرهم واعولهم . والماء القراح : هو الماء الخالص الصرف.

(٢) ذات اللوث : ذات القوة . الحلس : كساء على ظهر البعير تحت البرذعة .

وانى لمعط ما وجـدت وقائـل
لموقد نارى ليـلة الريح أوقد
وانى لقـوال لدى البث مرحبا
وأهلا اذا ما جاء من غير مرصد [١]
وانى ليدعونى النـدى فأجيبه
وأضرب بيض العارض المتوقد [٢]
وانى لحلو تعترينى مـرارة
وانى لتراك لما لم أعـود [٣]
فلا تعجلن يا قيس واربع فانما
قصاراك أن تلقى بكل مهند [٤]
حسام وأرماح بأيدى أعـزة
متى ترهم يا ابن الخطيم تبلد [٥]
ليوث لدى الأشبال تحمى عرينها
مداعيس بالخطى فى كل مشهد [٦]

كانت المعركة اذن بين الأوس والخزرج تتمثل فى قيس بن الخطيم وقيس بن الأسلت من جانب ، وحسان بن ثابت وعبد الله

---

(١) البث : الحـزن والغم . الربع : الفـزع والخـوف . المرصد : الطريق .

(٢) أضرب بيض العارض : اسبق المطر فى البذل. والعارض : السحاب .

(٣) حلو تعتريه المرارة : اى ينفع ويضر .

(٤) اربع : قفه واقتصر . المهند : السيف .

(٥) تتبلد : تتحير .

(٦) مداعيس : الدعس هو الطعن .

ابن رواحة من جانب آخر ، وقد استطاع شعراء الخزرج وعلى رأسهم حسان الصمود لشعراء الأوس كما استطاع فرسان الخزرج أن ينتصروا على فرسان الأوس فى أيام كثيرة .

وحينما تتداخل شخصية حسان فى شخصية قبيلته ويصبح الأصداء المتجاوبة ، والألحان ذات المقاطع المتآلفة تتردد فى كل منهما شخصية واحدة يبلغ حسان القمة فى تصوير مكارم نفسه وتصوير أمجاد قبيلته معا ، ونسمع تلك النغمات ذات قصائده المنبعثة من نفس فياضة ومن روح شاعرة ، ومن طبيعة مرتبطة ببيئتها ، منساقة مع فطرتها . لنسمع معا الأبيات التالية دون أن تتوقف فى فهم معانى ألفاظها الغريبة حتى لا نقطع على أنفسنا ذلك التدفق فى الانفعال ، والتسلسل فى التصوير . يقول [1] .

ألست بنعم الجار يولف بيته
كذى العرف ذا مال كثير ومعدما
وندمان صدق تمطر الخير كفه
اذا راح فياض العشيات خضرما [2]

---

(1) من قصيدته التى مطلعها .
ألم تسأل الربع الجديد التكلما
بمدفع أشداخ فبرقة أظلما

(2) فياض العشيات : الجواد . الخضرم : البحر الكثير الماء ويقصد الكريم الكثير العطاء .

وصلت به ركنى ووافق شـــيمتى
ولم أك عضا فى الندامى ملوما [1]
وأبقى لنا مر الحروب ورزؤهـــا
سيوفا وأدراعا وجمعا عرمرما [2]
اذا اغبر آفاق السـماء وأمحلت
كأن عليها ثوب عصب مسهما [3]
حسبت قدور الصاد حول بيـوتنا
قنابل دهما فى المحــلة صيما [4]
يظل لديها الواغـــلون كأنما
يوافون بحرا من سميحة مفعما [5]
لنـــا حاضر فعم وباد كأنـــه
شـماريخ رضوى عزة وتكرما [6]
متى ما تزرنا من معد بعصـــبة
وغسان نمنع حوضنا أن يهـدما

---

(١) العض : السيىء الخلق. الملوم : الذى يفعل ما يلام عليه.
(٢) العرمرم : الكثير .
(٣) امحلت : امحل النـاس : اذا نزل بهم القحط . الثوب العضب : ثياب يمنية موشاة .
(٤) قدور الصاد : قدور النحاس : القنابل : جماعات الخيل . الصيم : القيام .
(٥) الواغلون : الداخلون ويقصـد الذين يدخلون على القوم للطعام . سميحة : بئر بالمدينة . المفعم : الممتلىء .
(٦) شماريخ رضوى : أعالى رضوى . وهو جبل .

بكل فتى عارى الأشــاجع لاحه
قراع الكماة يرشح المسك والدما [1]
اذا استدبرتنا الشمس درت متوننا
كأن عروق الجوف ينضحن عندما [2]
ولدنا بنى العنقـــاء وابنى محرق
فأكرم بنا خالا وأكرم بنـــا ابنما
نسود ذا المـــال القليل اذا بدت
مروته فينـــا وان كان معــــدما
وانا لنقرى الضيف ان جــاء طارقا
من الشحم ما أمسى صحيحا مسلما [3]
ألسنا نرد الكبش عن طية الهوى
ونقلب مران الوشـــيج محطما [4]
وكائن ترى من سيد ذى مهـــابة
أبوه أبونا وابن أخت ومحـــرما

---

(١) الأشاجع : جمع اشجع وهو العصب الممدود فوق السلامى بين الرسغ الى أصول الأصابع . وعارى الأشاجع : أى أن عروق اليــد نافرة لأن اليــد نحيفة من ممارسة الحرب . لاحه : غيره . الكماة : الشجعان .

(٢) درت : امتلأت دما. العندم : دم الغزال وله رائحة طيبة.

(٣) نقرى : نكرم .

(٤) كبش الـكتيبة : قائدها . الطية : النية . مران : جمع مارن وهو الرمح اللين .

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى
وأسيافنا يقطرن من نجدة دما [1]
أبى فعلنا المعروف أن ننطق الخنا
وقائلنا بالعرف الا تكلما [2]
فكل معد قد جزينا بصنعه
فبؤسى ببؤساها وبالنعم أنعما

فى هذا الاطار الفنى الرائع يرسم حسان المثل العليا للشخصية الجاهلية كما يتوهم أنه يمثلها جميعا ، فمنزله مهبط الفقير والغنى ، كلاهما ينعم بضيافته ، وكلاهما يجد عنده الأمن والقرى ، وهو من خيرة الندماء اذا نادم الجواد الذى تمطر كفه الخير ، ثم هو أو قومه — فهما شىء واحد — أبطال المعارك ، ثم هم كرماء وهم أبناء البيوتات العريقة المجد وهم .. وهم .. وهم .. الخ ، وهو عندما يعدد تلك الصفات جميعا يرسمها بصورها الجاهلية التى تصبغها ألوان الصحراء ، وتمدها بموادها وعناصرها .

وتتسابق الصور ، وتتوالى المعانى التى يعبر بها حسان عن ذاته الجاهلية وعن صفته القبلية فى كل القصائد التى يمكننا أن نردها له وأن نحدد جاهليتها ومن هذه القصائد تلك التى مطلعها :

لمن منزل عاف كأن رسومه
خياعيل ريط سابرى مرسم

---

(١) الجفنات : القصاع . الغر : البيض .
(٢) الخنا : الذل .

يقول فيها :

متى تسـألني عنا تنبى بأننـا
كرام وأنا أهـل عز مقـدم
وأنا عرانين صـقور مصالت
نهز قنـاة متنها لم يوصـم [1]
لعمـرك ما المعتـر يأتى بلادنا
لنمنعه بالضـائع المتهضم [2]
ولا ضيفنا عند القـرى بمدفع
وما جارنا فى النائبات بمسـلم
وما السيد الجبار حـين يريدنا
بكيد عـلى أرماحنا بمحـرم
نبيح حمى ذى العـز حين نكيده
ونحمى حمانا بالوشـيج المقوم [3]
ونحن اذا لم يبرم النـاس أمرهم
نكون عـلى أمر من الحق مبرم
ولو وزنت رضوى بحلم سراتنـا
لمال برضـوى حلمنا ويرمرم [4]
ونحن اذا ما الحـرب حل صرارها
وجادت على الحلاب بالموت والدم

---

(١) عرانين القوم : سادتهم ، مصالت : جمع مصلت ، ورجل مصلت ماض فى الأمور .
(٢) المعتر : السائل .
(٣) الوشيج : الرمح .
(٤) رمرم : جبل .

ولم يرج الا كل أروع ماجـــد
شديد القوى ذى عـــزة وتكرم
نكون زمـــام القائدين الى الوغى
اذا الفشل الرعديد لم يتقـــدم
فنحن كذاك الدهر ما هبت الصـبا
نعود على جهالهم بالتحـــلم
فلو فهموا أو وفقوا رشـــد أمرهم
لعدنا عليهم بعـــد بؤسى بأنعم
وانا اذا ما الأفق أمسى كأنمـــا
على حافتيه ممسيا لون عنـــدم
لنطعم فى المشتى ونطعن بالقنـــا
اذا الحرب عادت كالحريق المضرم
وتلقى لدى أبياتنا حين تجتـــدى
مجالس فيها كل كهـــل معمم
رقيع عماد البيت يســتر عرضه
من الذم ميمون النقيبة خضرم (١)
جواد على العلات رحب فنـــاؤه
متى يسأل المعـــروف لا يتجهم

---

(١) ميمون النقيبة : مظفر فيما يفعل . الخضرم : الجواد .

ضروب بأعجاز القــداح اذا شتا
سريع الى داعى الهياج مصمم [1]
أشم طويل الســـاعدين سميدع
معيد قراع الدارعـــين مكلم [2]

وهنا أيضا يردد حسان مثل الجاهليين كما يراها فى قومه ، فهم كرماء يطعمون فى الشتاء حين يعز الطعام ويكثر احتياج الناس ، ويقدمون المعونة تحت أية ظروف فهم كرماء « على العــلات » لا يتريثون فى العطاء مهما قست عليهم الحياة ، وقل ما بأيديهم من غوث ، وهم شجعان بعد ذلك ، فالظالم له أرماحهم مشرئبة مشتاقة الى الدماء ، والجبار له أبطالهم شديدو القوى ماضو العزم ، حديدو الفؤاد ، قادرون على القراع ، مدربون عــلى الصراع . أما قوادهم فهم المتقدمون فى ميادين القتال حين تجبن أفئدة الشجعان ويهرب قواد الجيوش رعبا وخشية . وهم بعد هذا كله أهل حلم وأصحاب حكمة ، وان حكمة كهالهم وحلم شبابهم اذا وزنا بجبال رضوى لفاقاها ثقلا ورسوخا .

وليست صور حسان هذه غريبة على الجاهليين ، فهى التى تردد فى شعرهم ، يلجأون اليها ساعة الفخر والتغنى بمآثر القبيلة . غير أننا نلاحظ أن الاحساس الذى يلف هــذه المعانى جميعا

---

(١) ضروب بأعجاز القــداح : صاحب ميسر ، ولعب الميسر من شيم كرام الجاهليين .

(٢) الســميدع : الـكريم المعتدل القامة والشجاع . مكلم : مجرح .

مستمد من قوة الخزرج ومن ماضيها المجيد فى الجاهلية ، وصادر عن ايمان قوى للشاعر بهذا الماضى وهذه الأمجاد ، ثم بعد ذلك له قدرة فائقة فى التعبير عن كل هذا فى سلاسة ويسر ، وبساطة وتلقائية .

وشعر حسان الجاهلى ممتلىء بمثل هذه النغمات القوية التى تثبت قدرته وتفوقه كشاعر قبلى استطاع أن يدفع عن قبيلته غوائل شـعراء القبيلة المنافسة ، وأن يرد بقـوة وغلبة عليهم مفاخراتهم ومناقضاتهم ، لذلك يمكننا أن نقول ان أهم دور قام به حسان فى جاهليته أنه استطاع أن يحتل مركز الشاعر القبلى الذى يعبر عن عصبية القبيلة ويشيد بأمجادها ويعلن انتصاراتها ، ويرفع من شأو رجالاتها ويرد على أعدائها ، ويصمد لمناقضيها ويقاوم منافسيها أكثر من نصف عمره زمنا ، وعمره كله فنا !!

القسم الأول

حسّان في الجاهلية

ب ـ حسان الشاعر المادح :

لم يقتصر حسان على تمثيله لقبيلته فى معاركه الفنية ، واتجه الى عقد صداقات مع الامارات الشمالية ومدح ملوكها وأمرائها .

ومن يدرس الشعر الجاهلى يلاحظ أن شعر المدح الذى أنشده أصحابه للتكسب به قد كثر منذ منتصف القرن السادس الميلادى ويرجع ذلك الى عدة أسباب من أهمها : ازدهار الحياة فى الامارتين الشماليتين فى الحيرة وغسان فى هذا الوقت ، وازدياد ثرائهما وسلطانهما ، فاتجه الشعراء الى هذين المنبعين فى رحلات مستمرة ومنتظمة للارتواء منهما ، ومن الشعراء من استقر فيهما استقرارا دائما نديما لملوكهما ، ومغردا فى رياضهما كالشاعر العظيم النابغة الذبيانى .

وكان البلاط فى هاتين الامارتين يعج بالشعراء من كل نواحى الجزيرة العربية وكأنه صورة مصغرة لما سوف يحدث فيما بعد فى بلاط الأمويين والعباسيين .

زار حسان الغساسنة ومدحهم ، وكان اتصاله بهم اتصالا بذوى قرباه ، فقد مهد له نسبه فيهم أن ينزل فى بلاطهم وأن يجيزوه فى كل مرة ينزل فيها عليهم ، أما زيارته للمناذرة فقد اختلف فيها وان كان هناك نص يشير الى حدوثها .

لم يكن اتصال حسان بالغساسنة ونيل عطائهم فى أول الأمر

سهلا ، فالمنافسون فى بلاطهم شعراء متفننون قد احتلوا من قلوب الملوك والأمراء المكانة الأولى ، وكان على حسان أن يبحث عن موضع خال وسط هذا الزحام ، وكان حسان فى هـذه الفترة صديقا لأمير غسانى هو جبلة بن الأيهم انقطع له مدة اذ كان يقدم عليه ويقيم سنة فى أهله ، ثم رأى أن يتصل بالملك عمرو ابن الحارث الأصغر عسى أن يصيب مالا أكثر ، وشهرة أكبر ، فقد روى أنه قال : لو وفدت على الحارث فان له قرابة ورحما بصاحبى وهو أبذل الناس لمعروف ، وقد يئس منى أن أقدم عليه لما يعرف من انقطاعى الى جبلة ، فخرجت فى السنة التى أقيم فيها بالمدينة حتى قدمت على الحارث وقد هيأت مديحا ، فقال لى حاجبه وكان لى ناصحا : ان الملك قد سر بقدومك عليه وهو لا يدعك حتى تذكر جبلة ، فاياك أن تقع فيه فانه يختبرك ، فانك ان وقعت فيه زهـد فيـك ، وان ذكرت محاسنه ثقل عليه ، فلا تبتدىء بذكره ، فان سألك عنه فلا تطنب فى الثنـاء عليه ولا تعبه ، امسح ذكره مسحا وجاوزه ، فانه سوف يدعوك الى الطعام وهـو يثقل عليه أن يؤكل طعامه وأن يشرب شرابه فلا تضع يدك فى شىء حتى يدعوك اليه . قال فذكرت له ذلك . ثم دعانى الحارث فسألنى عن البلاد والنـاس وعن عيشنا فى الحجاز ، وكيف ما بيننا من الحرب ، وكل ذلك أخبره حتى انتهى الى ذكر جبلة . فقال : وكيف تجد جبلة فقد انقطعت اليه وتركتنا . فقلت له : انما جبلة منك وأنت منه . فلم أجر معه فى مدح ولا ذم ، وفعلت فى الطعام والشراب كما قال لى الحاجب . قال : ثم قال لى

الحاجب : قد بلغنى قدوم النابغة وهو صديقه وآنس به ، وهو قبيح أن يجفوك بعد البر ، فاستأذن من الآن فهو أحسن . فاستأذنته ، فأذن ، وأمر لى بخمسمائة دينار وكساء وحملان فقبضتهما وانصرفت الى أهلى [١] .

يتضح من هذه الرواية موقف حسان من البيت الغسانى وخاصة من الأمير جبلة بن الأيهم فقد كانت صلة حسان به قوية ، وصداقته به متصلة فى الجاهلية والاسلام وقد مدحه حسان بقصائد جيدة ، وعرف له جبلة هذا حتى بعد أن تنصر وسافر الى بلاد الروم . فقد حدث أن أرسل معاوية [٢] اليه رسولا ليعود الى الاسلام ، فرد جبلة الرسول وقد سأله عن حسان ، فقال له الرسول : شيخ كبير قد عمى . فدفع اليه جبلة ألف دينار وقال : ادفعها الى حسان . قال الرسول : فلما قدمت المدينة ودخلت مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيت فيه حسان بن ثابت ، فقلت له : صديقك جبلة يقرأ عليك السلام . قال : فهات ما معك . فقلت : يا أبا الوليد كيف علمت . قال ما جاءتنى منه رسالة قط الا ومعها شىء [٣] . وعن الأصمعى [٤] : أن جبلة بعث اليه بخمسمائة دينار وكسى . وقال للرسول : ان وجدته قد مات فابسط هذه الثياب على قبره ، واشتر بهذه الدنانير ابلا فانحرها

---

(١) الأغانى ١١ : ٣٩ .
(٢) وذلك اثناء ولايته فى الشام .
(٣) طبقات الشعراء لابن سلام ١٧١ .
(٤) المرجع السابق .

على القبر . فوجده حيا ، فأخبره ، فقال حسان : لوددت انك وجدتنى ميتا .

وقد دافع حسان عن جبلة بن الأيهم أمام عمر عندما ارتد جبلة وتنصر . فقد جاء أنه عندما علم عمر بارتداد جبلة شق عليه ، وقال لحسان : يا أبا الوليد : أما علمت أن صديقك جبلة بن الأيهم ارتد نصرانيا ؟ قال : انا لله وانا اليه راجعون . ولم ارتد ؟ قال : لطمه رجل من مزينة . فقال حسان : وحق له ! فقام اليه عمر رضى الله عنه بالدرة فضربه بها .

ولم يكن حسان يستطيع أن يبلغ فى فن المدح ما بلغه زهير والنابغة والحطيئة والأعشى وأمثالهم من الشعراء المداحين بل لقد خاف عليه عمرو بن الحارث أن يسمح له بالانشاد أمام النابغة الذبيانى وعلقمة بن عبدة حتى لا يكون أقل منهما فنا . قال أبو عمرو الشيبانى : قال حسان بن ثابت : قدمت على عمرو ابن الحارث فاعتاص (١) الوصول علىّ اليه ، فقلت للحاجب بعد مدة : ان أذنت لى عليه والا هجوت اليمن كلها ثم انقلبتُ عنكم ، فأذن لى ، فدخلت عليه ، فوجدت عنده النابغة وهو جالس عن يمينه وعلقمة بن عبدة عن يساره . فقال لى : يا ابن الفريعة ، قد عرفت عيصك (٢) ونسبك فى غسان ، فارجع فانى باعث اليك بصلة سنية ، ولا أحتاج الى الشعر فانى أخاف

---

(١) اعتاص : صعب .
(٢) العيص : المنبت .

عليك هذين السبعين : النابغة وعلقمة أن يفضحاك ، وفضيحتك فضيحتى وأنت والله لا تحسن أن تقول :

رقاق النعـــال طيب حجـزاتهم
يحيون بالريحان يوم السباسب [١]

فأبيت وقلت لابد منه . فقال : ذاك الى عمّيك [٢] فقلت لهما : بحق الملك الا قدمتمانى عليكما . فقالا : قد فعلنا . فقال عمرو بن الحارث هات يا ابن الفريعة : فأنشدت :

أسألت رسم الدار أم لم تســـأل
بين الجـــوابى فالبضيع فحومل

فلم يزل عمرو بن الحارث يزحل [٣] عن موضعه مسرورا حتى شاطر وهو يقول : هذا وأبيك الشعر الذى يعللانى به منذ اليوم ، وهــذه والله البتارة التى قد بترت المدائح ! أحسنت يا ابن الفريعة ! هات يا غلام ألف دينار مرجوحة وهى التى يزن كل دينار فيها عشرة دنانير . فأعطيتها ثم قال : لك علىّ فى كل سنة مثلها .

وفى رواية أخرى أنه أنشد بعد النابغة وعلقمة ، فلما سمع الحارث قصيدة النابغة التى أولها :

كلينى لهم يا أميمــة ناصب وليل أقاسيه بطىء الكواكب

---

(١) قصيدة النابغة التى مطلعها :
كلينى لهـم يا أميمــة ناصــب
وليل أقاســـيه بطىء الـكواكب
(٢) يقصد النابغة وعلقمة .
(٣) يزحل : يتنحى ويتقلقل .

قال الحارث : لقد ذهب نصفى .

ولما أنشد علقمة :

طحا بك قلب فى الحسان طروب
بعيد الشباب عصر حان مشيب

قال : لقد ذهب نصفى الآخر .

فلما أنشد حسان قصيدته السابقة قال له الحارث : أدنه ، أدنه ، لعمرى ما أنت بدونهما .

ونحن لا يهمنا النص الحرفى لكل تلك الروايات بقدر ما يهمنا أنها تصور جميعا قضية واحدة وهى أن حسان كان يشعر فى أعماقه بأنه ليس فى قدرة كبار المادحين كالنابغة وعلقمة ، وأن الممدوحين كانوا ينظرون اليه نفس النظرة أيضا .

وقد حكى أنه لما أراد الورود على عمرو بن الحارث قالت له بعض نساء الأمراء : عليك بمدارسة الشعر [1] وكأنما كان حسان يحتاج الى زيادة خبرة بهذا الفن قبل أن يقدم على الملوك ، ففرق كبير بين أن يقول الشاعر الشعر بين أفراد قبيلته فتدفعهم العصبية الى تمجيده ولو كان ضعيفا وبين أن يقدم به على ملك من الملوك ينافس به شعراء مختارين لينال جوائزه .

وربما كانت أهم قصيدة جاهلية بقيت لحسان فى مدح الغسانيين هى التى مطلعها :

أسألت رسم الدار أم لم تسأل
بين الجوابى فالبضيع فحومل

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ٤ : ١٢٦ .

وقد مدح بها الملك الغسانى عمرو بن الحارث .

وقد استطاع حسان أن يبلغ القمة الفنية فى هذه القصيدة فى مدح الغسانيين ووصف مجالسهم ومنتدياتهم ، فهم أعـزة أمجاد لا يجـرؤ ملك أن يحتك بهم أو أن ينقـل عنهم صفة أو مكرمة ، لأنهم أبناء ملك عظيم وهو الحارث الأعرج ابن أبى شمر الغسانى وأمه مارية ذات القرطين المشهورين ابنة ملك الرومان . وهم يسقون الخمر لأضيافهم ويمدون الموائد لكل مقبل عليهم ، لا يبالون بمن نزل بهم ، ولا يروعهم جمعهم قل أو كثر . فهم ملوك كرماء يعيشون فى سعة ، ويسقيهم ولدانهم الحسان الرحيق الشهى ، فهم ليسوا صعاليك فقراء يرسـلون ولدانهم لنقف الحنظل كما تفعل العرب . يقول :

دار لقـوم قد أراهم مـرة
فوق الأعـزة عزهم لم ينقل

لله در عصـابة نادمتـهم
يوما بجلق فى الزمـان الأول (١)

أولاد جفنة عنـد قبر أبيهم
قبر ابن مارية الكريم المفضـل

يسـقون من ورد البريص عليهم
بردى يصفق بالرحيق السلسل (٢)

---

(١) جلق : دمشق أو موضع قريب منها .
(٢) البريص : نهر بدمشق وكذلك بردى .

يســـــقون درياق المدام ولم تكن
تغــدو ولائدهم لنقف الحنظل [1]
يغشون حتى ما تهـــــر كلابهم
لا يسألون عن الســـواد المقبــل
بيض الوجــوه كريمة أحســابهم
شم الأنوف من الطـــراز الأول

* * *

ولا ينسى الشاعر أن يصف شجاعتهم وجسارتهم فى الحروب وكيف يسيرون الى الحرب فى حللهم ودروعهم . يقول :

يمشون فى الحلل المضاعف نسجها
مشى الجمال الى الجمال البزل [2]
الضاربون الكبش يبرق بيضــــه
ضربا يطيح له بنان المفصـــل [3]

* * *

ويصل حسان الى صورة من أجمل ما خلق فى شعره ، تلك الصورة التى يعبث فيها عبث الرجل المجرب لا الفتى الغض ، فهو يقبل على الخمر وعلى مجالسها بقلب ولهان ، ينادم أمراء جفنة فى قصورهم ، ويسعى بها اليه الحسان يسقونه مرة بعــد مرة فلا يرتوى . نعم ! انه لا يشربها ممزوجة بالماء وانما يطلبها صرفا لم تقتلها قطرة منه ، وعلى كلٍّ فكلا النوعين يخدر أطرافه ، ويثير

(١) نقف الحنظل : شقه وتكسيره .
(٢) البعير البازل : الذى اســتكمل السنة الثامنة من عمره .
(٣) الـكبش : السيد أو القائد .

فيه النشوة بعد أن جاش العصير ورقض الحبب فوقه . يقول :

اما ترى رأسي تغير لـــــونه
شمطا فأصـبح كالثغام المحول [١]

ولقد يرانى موعــــــدى كأنتى
فى قصر دومة أو سواء الهيكل [٢]

ولقد شربت الخمــــر فى حانوتها
صـــهباء صافية كطعم الفلفل [٣]

يسعى عـــــلىّ بكأسها متنطف
فيعلنى منهـــــا ولو لم أنهل [٤]

ان التى ناولتنى فرددتهـــــــا
قتلت — قتلت — فهاتها لم تقتـــل

كلتاهما حلب العصــــير فعاطنى
بزجاجة أرخاهمـــا للمفصـــل

بزجاجة رقصت بما فى قعــــرها
رقص القلوص براكب مستعجل [٥]

---

(١) الشمط : بياض شعر الراس يخالطه سواده . والثغــام : نبات ينبت أخضر اللون ثم يبيض اذا يبس . المحول : التى أتى عليه الحول .

(٢) موعدوه : هم أعداؤه الذين يوعدونه بالشر .

(٣) الحانوت : الحانة . الصهباء : الخمر التى تعصر من عنب أبيض .

(٤) المتنطف : اى الذى فى أذنه قرط . يعلنى : يسقينى مرة بعد مرة . والعلل الشرب الثانى والنهل الشرب الأول .

(٥) القلوص : الابل الفتية .

لذلك ليس عجيبا أن لا يشعر الشاعر بالوقت الذى يمر عليه وهو عندهم فكأن هذا الوقت لم يمر عليه قط . يقول :

فلبثت أيامـــا طـــوالا فيهم
ثم ادكرت كأننى لم أفعـــل [1]

ثم لا ينسى أن يتخذ مثل هذه الزيارات موضـوعا للفخر فليس كل شاعر بقادر على أن ينال رضاء الملوك أو يكسب ودهم :

وتزور أبواب الملـوك ركابنا ومتى نحكم فى البرية نعـدل

* * *

وتتكرر المقطوعات التى يمدح فيها حسان الغساسنة ، ورغم أنها قليلة جدا فانها تصور ذلك الشعر الكثير الذى قيل فيهم وضاع مع الزمن .

وحينما يمدح حسان الغساســنة ، فانه لا يسلك ســلوك الشعراء الغرباء عنهم يمدحونهم ليأخذوا عطاءهم فحسب ، ولكنه يمدحهم ليفتخر بهم لأنهم أخواله الذين استطاعوا أن يبنوا لهم مجدا ، فمجدهم مجده ، وذكر محامدهم فخر له . يقول :

رب خـــال لى لـــو أبصرته
سبط المشية فى اليـــوم الخصر
عنـد هـذا البـاب اذ سـاكنه
كل وجه حسن النقبـــة حر
يوقد النـــار اذا مـــا أطفئت
يعمل القـــدر بأثباج الجزر [2]

---

(١) ادكرت : تذكرت . (٢) أثباج الجزر : اطايبها .

من يغر الدهـــر أو يأمنـــه
من قبيـــل بعد عمرو وحجر
ملكا جبــل الثـــلج الى
جانبى أيلة من عبـــد وحـــر
ثم كانا خـــير من نال الندى
سبقا النـــاس باقساط وبر
فارسى خيـــل اذا ما أمسكت
ربة الخــدر بأطراف الســـتر
أتيـــا فارس فى دارهم
فتناهوا بعـــد اعصام بقر (١)
ثم صاحا بين غسان اصـــبروا
انه يوم مصاليت صـــبر (٢)

الى أن يقول

منهم أصـــلى فمن يفخـــر به
يعرف النـــاس لفخر المفتخـــر
نحن أهـــل العز والمجد معـــا
غـــير أنكاس ولا ميـــل عسر (٣)

---

(١) تناهت بعد اعصام بقر : اى انتهت بعد التحصن بالهزيمة. والقر : الشدة .
(٢) مصاليت : جمع مصلت وهو الماضى فى الأمور ، الحازم.
(٣) انـكاس : جمع نكس وهو الرجل المقصر عن النجـدة والـكرم . والأميل : الجبان . العسر : جمع اعسر وهو الذى يعمل بشماله .

فسلوا عنـــــا وعن أفعـــالنا
كل قوم عنـــدهم عـــلم الخبر

وشعر حسان الجاهلى فى صديقه جبلة بن الأيهم قليل جدا رغم أن الروايات تشير الى استمرار زيارته له عاما بعد عام . وقد بقيت مقطوعة فى مدحه يصف فيها حسان عيـد الفصح عنـد المسيحيين يقول فيها : (١)

قد دنا الفصح فالولائد ينظمـ ... ـن قعـودا آكـلة المرجان (٢)
يجتنين الجـادى فى نقب الريـ ... ـط عليها مجاسد الكتان (٣)
لم يعللن بالمغافر والصمـ ... ـغ ولا نقف حنظل الشريان (٤)
ذاك معنى من آل جفنة فى الدهـ ... ـر وحق تعاقب الأزمـــان
قد أرانى هنـــاك حق مكين ... عند ذى التاج مقعدى ومكانى

المعانى التى مدح بها حسان اذن ملوك الشام هى المعـانى التى كان يمدح بها الملوك فى الجاهلية فهم كرام أثرياء ، دورهم تستقبل كل وافد ويقدمون له الطعام والخمر ، ويلبسون أجمل

---

(١) مطلعها :
عن الدار أوحشـــت بمعــان
بين أعـلى اليـــرموك فالخمان
(٢) الفصح : عيد قيامة المسيح . الأكلة : جمع اكليل وهـو التاج .
(٣) الجادى : الزعفران . النقب : جمع نقبة وهو ازار يشد كالسراويل . الريط : الثياب اللينة الرقيقة البيضاء . المجاسـد : القمصـان .
(٤) المغافر : نوع من الصمغ . الحنظل : ثمرة مستديرة مرة .

الملابس ، ويفترشون أفخر الرياش ، وهى أشـياء لا يجدها البدوى فى صحرائه ، وحين يصف موائدهم وأعيادهم فانما هى وسيلة لمدحهم والتقرب اليهم ولا شك أن مثل هـذه الزيارات أثرت فى فنه ، فهو لم يكن يستطيع أن يرسم صورة عيد الفصح كما رسمها فى الأبيات السابقة دون أن يرى الفتيات وهن ينظمن الأكاليل المزينـة بالجواهر ، أو يعطرن أجسادهن وملابسهن بالزعفران ، ثم يقارن بين أولئك الفتيات وفتيات البدو فيقول انهن لسن ممن يجتنين صمغ المغافر وينقفن الحنظل لاستخراج ما فيه .

وقد مدح حسان جبلة فى الاسلام حين أرسل اليه هدية من ثياب وأموال فقال :

ان ابن جفنـة من بقية معشر   لم يغذهم آباؤهم باللـوم
وأتيته يوما فقـرب مجلسى   وسقى براحته من الخـرطوم
لم ينسنى بالشام اذ هو ربها   كلا ولا متنصرا بالـروم

لم ينس حسان اذن جبلة ، ولم ينسه جبلة أيضا ، وكأن تلك الصداقة العريقة التى توطدت عراها فى الجاهلية لم تستطع الأيام واختلاف الأديان أن تفصمها ، ولا غرو فقد تحمل حسان أن يضربه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بالدرة فى سبيل جبلة عندما دافع عنه وأراد أن يقول كلمة الحق التى يشعر بها دون خوف أو وجل .

ونستطيع الآن أن نسأل هل اتصل حسان بملوك المناذرة كما اتصل بملوك الغساسنة فى جاهليته ؟ ان رأيى فى هذا الموضوع

وما تدل عليه النصوص أنه اتصل بهم وان لم يكن هذا الاتصال مستمرا كما كان عليه مع الغساسنة ، فلا شك أنه كان يسمع عن بلاط النعمان بن المنـذر ووفود الشعراء عليه واغداقه العطايا والجوائز الثمينة مقابل مدحهم له . ولم يكن حسان بأقل من هؤلاء الشعراء طمعا فى أن ينال مثل ما ينالونه . قال حسان : رحلت الى النعمان فلقيت رجلا ، فقال : أين تريد ؟ قلت : هذا الملك . قال : فانك ان جئته متروك شهرا ثم يسأل عنك رأس الشهر ثم أنت متروك شهرا آخر ثم عسى أن يأذن لك ، فان أنت خلوت به وأعجبته فأنت مصيب منه ، وان رأيت أبا أمامة النابغة فاظعن فانه لا شيء لك . قال : فقدمت عليه ففعل بى ما قال ، ثم خلوت به وأصبت مالا كثيرا ونادمته . فبينا أنا معه فى قبة اذ جاء رجل يرتجز حول القبة :

أنمت أم تسمع رب القبـــة   يا أوهب الناس لعنس صلبة
ضرابة بالمشـــــفر الأذبة   ذات نجاء فى يديها جلبـــة

فقال النعمان : أبو أمامة ! فأذنوا له ، فدخل فحياه وشرب معه ووردت النعم السود ، ولم يكن لأحد من العرب بعيرأسود يعلم مكانه ، ، ولا يفتحل فحلا أسود . فاستأذنه أن ينشده فأنشده كلمته التى يقول فيها :

فانك شمس والملوك كواكب   اذا طلعت لم يبد منهن كوكب

فدفع اليه مائة ناقة من الابل السـود ومعهـا رعاؤها ، فما حسـدت أحـدا حسدى النابغة لما رأيت من جزيل عطيته وسمعت من فضل شعره .

وجاء فى ديوان حسان اشارات فى قصائد له تدل على أنه زار المناذرة وذلك عندما يقول :

وأنا الصقر عنـــد باب ابن سلمى
يوم نعمان فى الكبـــــول مقيم

فابن سلمى هو النعمان بن المنذر اللخمى ، ونعمان الذى فى الكبول هو نعمان بن مالك بن نوفل بن عوف كان حبسه النعمان ابن المنذر مع آخرين فوفد فيه حسان فى قومه فأطلقوا لهم .

وفى قصيدته التى يرد فيها على قيس بن الخطيم والتى أشرنا اليها من قبل ويثبتها القرشى كاحدى مذهباته يقول حسان مادحا النعمان بن المنذر :

أكلفها أن تدلج الليـــــــل كله
تروح الى باب ابن سلمى وتغتدى
تزور امرأ أعطى على الحمــد ماله
ومن يعط أثمان المحامد يحمـــــد
وألفيته بحـــرا كثيرا فضــوله
جوادا متى يذكر له الخـــير يزدد

وعلى هذا فليس من المستبعد أن يكون حسان قد وفد على النعمان ومدحه أو زاره زيارة شـــاعرة لينـــال عطاياه وان كان الديوان لا يضم قصائد أو مقطعات قالها فى مدحه .

حـ ـ حسان الشاعر الانسان :

هل استغرق فنا الفخر والمدح كل شعر حسان ، أم فرغ لنفسه بعض الأحيان .

لقد استطعنا أن نعرف بعض ملامح شخصية هذا الشاعر من خلال هذين الموضوعين اللذين يرتبطان بطبيعة الحياة الجاهلية والمجتمع القبلى العربى ، غير أن الشاعر حينما يفرغ لنفسه يتأملها ويتأمل الحياة من خلالها تظهر ملامح أخرى من شخصيته لا يظهرها الفخر أو المدح ، لأنه عادة يكون فى هذين الموضوعين شاعرا غيريا ، يعطى الآخرين ولا يعطى نفسه ، ويصف مشاعر الآخرين ، ولا يصف مشاعره اللهم الا اذا حاول أن يشارك فى أحداث الآخرين وفى هذه الحالة تذوب شخصيته فى شخصية الغير ويصبحان شيئا واحدا ، وهنا يعز على الباحث أن يفرق بين العنصرين ، كما يصعب عليه أن يضع يده علـى ذاتية الشاعر بمفردها .

ونحن لا نجد فى ديوان حسان قصائد أو مقطوعات أفردها الشاعر لنفسه يعبر فيها عن دخائلها ؛ ويصور فيها نوازعه ومشاعره ، ولكنا نجد هذه المقطوعات ضمن القصائد التى يكون فيها غيريا ، يمدح أو يفخر ، ويسلك فيها الشاعر مسلك السابقين عليه حينما يمهدون للموضوع الأصلى بمقدمات غزلية أو طللية ثم يتبعون ذلك بوصف للراحلة أو الطريق ، وقد ينتهون من موضوعهم الأصلى بنظرات فى الحياة أو حكمة تجرى على لسان الناس . ومن خلال هذه المقدمات وهذه النهايات يمكننا أن نبحث عن بعد آخر من أبعاد هذه الشخصية المخضرمة .

وربما كان أهم الموضوعات التى عبر فيها الشاعر عن أحاسيسه ومشاعره ، ورسم فيها صورة لنفسه من بعض جوانبها

الخفية علينا هى موضوعات الغزل والمقدمة الطللية ووصف الطبيعة عامة والخمر خاصة . وسنقف عند هذه الموضوعات باحثين عن ذات الشاعر وعن ملامح شخصيته لتكتمل لنا صورته الجاهلية كما كانت عليه .

١ — الغزل والمقدمة الطللية : ربما لم يعرف لحسان امرأة وله بهـا وغنى بجمالها فى شعره كما عرف لغيره من شـعراء الجاهلية ، وهو فى الوقت نفسه ليس كغيره من الشعراء الذين يشببون بنساء كثيرات ، انما يتكرر اسم شعثاء فى معظم قصائد الديوان ، ثم تليها عمرة . وكلا الاسمين فى رأى كثير من الرواة — وكما بينا من قبل — زوج له طلقها وأكثر من ذكرها فى شعره مشببا ونادما .

والمقدمة الطللية تمتزج بذكرى الحبيبة وأيام العشق الأولى وكيف ولت تلك الأيام بعد أن هجرته ودرست الأطلال .

أسألت رسم الدار أم لم تسـأل
بين الجـوابى فالبضيع فحومل
فالمرج مرج الصفريين فجاسـم
فديار سلمى درسـا لم تحلل
أقوى وعطل منهم فكأنـه
بعد البلى آى الكتاب المجمـل
دمن تعاقبهـا الرياح دوارس
والمدجنات من السماك الأعزل [1]

(١) المدجنات : الغيوم المطرة . السماك الأعزل : نجم .

فالعين عانيــــــــة تفيض دموعها
لمنــازل درســـت كان لم توءل

وحبيبة حسان فى الجاهلية تعرف الشام وترحل اليه ، كما تعرف الحجاز وتنزل فيه ، وهى صفة يضيفها حسان الى صاحبته وكأنما تنفرد بذلك عن صويحباتها .

انظر خليلى ببطن جلق هـــل تؤنس دون البلقاء من أحـــد
أجمال شـــعثاء قد هبطن من المحبس بين الكثبان فالســـند
يحملن حورا حور المدامع الر يطـ وبيض الوجـــوه كالبرد
من دون بصرى ودونها جبل الثلج عليه السحاب كالقــــدد

وقد يقف حسان حزينا ساهرا يبث الهوى ويشكو الفراق دون أن ينظر الى الأطلال أو يصف الدمن ، بل ينظر الى السماء يبحث فيها عن حب مفقود فتحتد نغماته وتشوبها حسرة ، وتعنف غنائيته وتكتسب شفافية . ان ليل الشاعر طويل ، يسهر ليرعى النجوم ولا يقربه النوم حتى يغيب آخر نجم فى السماء ولكنها نجوم بطيئة السير اذا غاب منها نجم فهناك أخرى لا تغيب :

تطاول بالخمان ليلى فلم تكن تهم هوادى نجمه أن تصوبا
أبيت أراعيها كأنى مـــوكل بها ما أريد النوم حتى تغيبا
اذا غار منها كوكب بعد كوكب تراقب عينى آخر الليل كوكبا
غوائر تترى من نجوم تخالها مع الصبح تتلوها زواحف لغبا

وهو يخاف الفراق الذى يأتى بغتة فيفرق الأحبة على غــير انتظار ، وتشيب له الرأس على غير موعد . واذا حدث هذا الفراق

فالطبيعة كلها تمهد له ، فينعب الغراب ، وتجنح شمس النهار لتظلم الدنيا ، وتضيق الحياة به . ولكنه يلوم نفسه وكأنه يعزيها لأنه استسلم للهوى بعد أن لقى منه العذاب ، وحن الى الصبا وقد بلغ الأربعين . يقول :

أخاف فجاءات الفراق ببغتة
وصرف النوى من أن تشت وتشعبا
وأيقنت لما قوض الحى خيمهم
بروعات بين تترك الرأس أشيبا
وأسمعك الداعى الفصيح بفرقة
وقد جنحت شمس النهار لتغربا
وبيّن فى صوت الغراب اغترابهم
عشية أوفى غصن بان فطربا
وفى الطير بالعلياء اذ عرضت لنا
وما الطير الا أن تمر وتنعبا
غداة انبرى قلبى ينازعه الهوى
أنازع نفسى أن أقوم فأركبا
وكيف ولا ينسى التصابى بعدما
تجاوز رأس الأربعين وجربا
وقد بان ما يأتى من الأمر واكتست
مفارقه لونا من الشيب مغربا

ولا يقف حسان كثيرا عند وصفه لجسم صاحبته على عكس ما يفعل أغلب الشعراء الجاهليين ، وان فعل ذلك فانما ليرسم

لها صورة سريعة وكأنه لا يعنيه الا وقع جمالها فى نفسه ، فهو مصور تأثرى أكثر منه مصورا واقعيا حسيا . يقول :

جنية أرقنى طيفهــــــــا
يذهب صبحا ويرى فى المنـــــام
هل هى الا ظبية مطفــــــــل
مألفها الســـدر بنعفى بـــرام
تزجى غزالا فاترا طـــــــرفه
مقارب الخطـــو ضعيف البغـام
كأن فاهـــــــــــا ثغب بارد
فى رصف تحت ظلال الغمـــــام
شجت بصهباء لها ســـــــورة
من بيت رأس عتقت فى الخيـــام
عتقها الحانوت دهـــــرا فقـد
مر عليها فرط عـــــــام فعام
تدب فى الجسم دبيبـــــا كما
دب دبى وسط رقاق هيـــــــام

ذلك هو تأثير صاحبته فى نفسه ، فهـو لا يصف مظهرها الخارجى كما يفعل امرؤ القيس مثلا وانما يصف تأثيرها فيه ، فهى كالغزال الصغير يثير فى نفسه الحنان لضعف جسمه وخفوت صوته ، وهى كالخمر تثير فى جسمه لذة الانتشاء والسكر ، وهى لذة عارمة كتلك التى تثيرها خمر معتقة دهرا طويلا .

٢ — الخمريات : الخمر مظهر من مظاهر الفتوة الجاهلية ،

فالسيد الحر الغنى هو الذى يشربها ويبذل ماله فى مجالسها ، وكان حسان فتى من فتيان الخزرج ، فليس عجيبا أن يكون مدلّها فى حبها ، مقبلا على منتدياتها ، مهينا ماله فى سبيلها .

وقد ارتبطت المقدمة الغزلية والطللية عنده بوصف الخمر وتأثيرها ومجالسها ، ويعتبر حسان أحد شعراء الخمر الجاهليين ، ويظهر أن تردده على بلاط الغساسنة بشكل منتظم أتاح له الفرصة ليصور فى شعره مجالس شربهم ، وأندية لهوهم .

ومن أخباره الطريفة فى هذا الشأن أنه دخل بيت خمار فى الجاهلية ومعه أعشى بكر بن وائل فاشتريا خمرا وشربا فنام حسان ثم انتبه ، فسمع الأعشى يقول للخمار : كره الشيخ الغرم . فتركه حسان حتى نام ثم اشترى خمر الخمار كلها ، ثم سكبها فى البيت حتى سالت تحت الأعشى . فعلم الأعشى أنه سمع كلامه فاعتذر اليه . وقد أشار حسان الى هذا الخبر فى قوله :

ولسنا بشرب فوقهم ظل بردة
يعدون للخمار تيسا مفصدا

وقد وقفنا فى عرضنا لزيارات حسان للغساسنة عند وصفه لمجالس خمرهم ومدحه لهم بهذه المكرمة الجاهلية وهى تقديم الخمر للأضياف . وقد برع حسان فى وصف الغناء واللهو اللذين يصحبان مجالس الشراب ، وكان حسان يحب هذا الغناء ويتعشق هذا اللهو ويعبر عن هذا كله فى شعره . وهنا نلمح عنصرا من عناصر شخصيته ، فهو رجل مرح مقبل على الحياة ، يغترف من

لذائذها كما تشتهى نفسه ، وينال من أطايبها ما يتفق وهواه . يقول معبرا عن كل ذلك :

رب لهـــو شهدته أم عمـــرو
بين بيض نواعم فى الريـــــاط

مع ندامى بيض الوجـــوه كرام
نبهوا بعـــــد خفقه الأشراط

لكميت كأنهـــا دم جـــوف
عتقت من ســـلافة الأنبـــاط

فاحتـــواها فتى يهين لهـــا الما
ل ونادمت صـــالح بن عـــلاط

ظل حولى قيـــانه عازفـــات
مثـــــل أدم كوانس وعـــواط

طفن بالكأس بين شـــرب كرام
مهدوا حـــر صـــالح الأنماط

ســاعة ثم قال هن بـــداد
بينكم غير سمعة الاختـــلاط

هو اذن ينادى أم عمرو ليخبرها بأنه شهد مجلسا ممتعا للهو وسط غيد حسان قد ارتدين الثياب الشفافة البيضاء ، وقد نادم فيه أناسا كراما منهم صالح بن علاط وسهر معهم حتى الصباح . لقد أهانوا أموالهم فى هذه الخمر المعتقة الحمراء بعد أن افترشوا البسط ودارت عليهم القيان الحسان — المشبهات للظباء —

بالكئوس وهن يغنين ويعزفن وأخيرا وهبهم هذا الغنى القيان جميعا دون أن يكون قد اختلط عقله سكرا أو خبلا .

وتتكرر هذه الصور فى شعر حسان الجاهلى وكأنها ضرورة من ضرورات النظم يلتفت فيها الشاعر لنفسه ، ويصدق فى التعبير عن دخائله ويحسن فى تصوير ما يراه ، وهو فى كل ذلك عابث لاه ، يبحث عن اللذة ، ويطلب النشوة ، ويهين المال فى سبيل هذا كله ليحقق فى نفسه صورة الفتى الجاهلى فى احدى صفاته الأساسية .

ويخرج حسان بحكمة الحياة من هذه المنتديات ، فيعرف أن لا قيمة لشىء ، لأن كل شىء الى زوال ، فلماذا التفكير والارهاق وتعب النفس ، والانسان لن يكسب فى حياته الا اللذة الحاضرة ، فعليه اذن أن يطلبها فى كل وقت ويبحث عنها كلما اشتهى ذلك . يقول :

وممسك بصداع الرأس من سكر
نادیته وهو مغلوب ففدانى
لما صحا وتراخى العيش قلت له
ان الحياة وان الموت مثلان
فاشرب من الخمر ما آتاك مشربه
واعلم بأن كل عيش صالح فان

٣ — الوصف : من الموضوعات التى عودنا الجاهليون أن يصفوها فى شعرهم — غير وصف الأطلال — وصف النوق والخيل وأدوات الحرب ، ووصف المسالك وقطعها وما يقابل فيها

المرتحل من صعاب ومن وحش وجن ، كذلك عودنا الجاهليون وصف مظاهر الطبيعة من سحاب وأمطار وسيول ثم أنواع النباتات الصحراوية بألوانها وعبيرها ومذاقها أيضا . وقد شغلت العصبية الجاهلية ومدح الملوك والأمراء حسان بن ثابت فى جاهليته عن أن يلتفت لمثل هذه الموضوعات ويستغرق فيها كما يفعل غيره من الشعراء ، ولكن اذا عرض لها فانما يعرضها عرض المقلد المتتبع لأصول نظم الشعر وترتيب موضوعاته .

وربما كان من الصور الجميلة التى رسمها حسان لاحدى مظاهر الطبيعة هى وصفه للنجوم وهو ما سبق أن بيناه . وقد سبق شعراء آخرون حسان فى رسم مثل هذه الصورة وبنفس الألوان والأبعاد والدلالة غير أنه يختلف عمن سبقه فى نوع التأثير اذ نراه فى بعض الأحيان يلجأ الى تلوين صوره بلون رومانسى حاد .

كذلك صورة أخرى عاشها حسان فى شعره وان كانت قليلة وهى وصفه للصيد ، والشعر الجاهلى ممتلىء بمثل هذه الصورة فهى عند امرىء القيس وأوس بن حجر ولبيد وزهير وكعب وغيرهم .

وصورة حسان مرسومة رسما سريعا — على عادته — فى معظم صوره — فهى لا تقف لتفصل ، وانما غايتها أن ترسم خطا واحدا له دلالات كثيرة ، ويمكننا أن نحيل القارىء الى مقطوعته التى تبدأ بقوله :

رب خرق أجزت ملعبه الجن معى صارم الحديد أباطى

الى أن يقول :

يوم رحنا وما يخاف خليلى   من لسانى خيـانة الانبساط

وسنجد فيها أن سرعته لا تتيح له التأمل أو التخيل ولا تيسر له الوقت ليصور أحاسيسه المباشرة من خلال تفصيل جزئيات الصورة . لذلك فقد شعره أهم خاصة نجدها عند نوابغ الجاهليين وهى تلك النزعة الانسانية التى تنبض بها الأشـكال الفنيـة والموضوعات الحية فى هذا الشعر ، فحين نجد مثلا صور أوس وزهير ولبيد تنبض بالمشاعر الانسانية الجارفة فى قصص الصيد والحيوان نجد صور حسان جافة تقريرية فى معظمها كأنما ضعفت لديه قدرة الحس الانسانى الذى يربط بين مظاهر الوجـود ومكوناته وبين نفسه الشاعرة .

واذا أتينا لوصف حسان للسحاب والمطر فسنجد له أبياتا يقول فيها ان صاحبته بقيت فى منازلها صيفا حتى ظهر فى السماء سحاب له رعد وارزام ثم اجتمع هذا السحاب بعضه الى بعض واسودّ من امتلائه بالماء وأصبح قريبا من الأرض ، ثم اشتد برقه وانهمر ماؤه ، واختلف صوته وأصبح كأصوات الابل التى تحن الى أولادها .ولقد أوشك رعده من شدته فى وادى العقيق أن يهدم هضبة جماء فجرفت مسايل الماء التى كونها أشجار الشوك أمامها ، ولما رأت صاحبته وقومها ذلك تنادوا بليل وارتحلوا . وهـذه الصـورة تذكرنا بأبيات كل من امرىء القيس وأوس بن حجر فى وصف البرق والمطر ، ونشعر أن حسان استفاد من

الشاعرين ، واستطاع أن يرسم صـــورته معتمدا عـــلى خطوط صورتى الشاعرين . يقول حسان :

أقامت به بالصيف حتى بدا لهـــا
نشاص اذا هبت له الريح أرزمـــا
فلما دنت أعضـــــاده ودنا له
من الأرض دان جـــوزه فتحمحما
تحن مطافيل الرباع خـــــلاله
اذا استن فى حافاته البرق أثجمـــا
وكاد بأكناف العقيق وئيـــــده
يحط من الجمــــاء ركنا ململما
فلما علا تربان وانهـــــل ودقه
تداعى وألقى بركه وتهـــــزما
وأصبح منه كل مدفع تلعــــــة
يكب العضـــاة سيله ما تصرما
تنادوا بليل فاستقلت جمـــوعهم
وعالين أنماط الدرقل المرقمـــــا

يمكننا أن نقول اذن ان صـــور حسان مشبعة بصور من عاصروه كأوس وزهير ولبيد أو من سبقوه كامرىء القيس ، فالألوان والأصوات والحركة فى صوره تراث منقول الى شعره ، واذا كان قد تفوق أوس ولبيد عليه فى تفصيل الصورة وتركيبها واكسابها الاحساس الذاتى والنزعة الانسانية وفاقه امرؤ القيس فى قدرته على نقل الواقع بتفاصيله وربطه بصور جزئية بسيطة

متلاحقة فقد استطاع حسان أن يفوق هؤلاء فى أنه نجح فى أن يربط هذه الموضوعات الوصفية بالموضوع الأصلى فى القصيدة فيكسبها بذلك وحدة تنقص قصائد كثير من شعراء الجاهلية .

من هذا الفصل وبعد هذا العرض يمكننا أن نلخص الصفات العامة لشخصية حسان بن ثابت فى اطارها الجاهلى .

* * *

وكما رأينا يمكننا أن نحدد هذه الصفات فى ملامح ثلاث ، لها تأثيرها فى تكوينه النفسى والمادى . وهى :

١ — ارتباطه الوظيفى بعصبيته القبلية .

٢ — ارتباطه الحيوى بمصادر الثروة فى الامارات الشمالية .

٣ — ارتباطه الفنى نحو ذاته والتعبير عن فرديتها .

أما الارتباط الأول فقد فرضه وضعه وموهبته فى مجتمعه القبلى لأن معارك القبيلة ومشاجراتها أساس من أسس تركيبها الاجتماعى ، وضرورة من ضرورات حياتها اليومية ، ولم يكن الشاعر بأقل من الفارس فى أهمية وظيفته الاجتماعية فى قبيلته ولا سيما اذا أثبت كفاءة فى مناقضة الشعراء المنافسين ، وموهبة فى التفوق عليهم فنيا ، وكان أكثر ما يهتم به الشاعر أن يلم بأخبار قومه وأخبار أعدائهم ، ثم أن يلم بأنساب الاثنين معا ليستطيع أن يبحث عن الأمجاد والمآثر ، وشرف النسب ونقاء الدم .

وقد نجح حسان فى أن يقوم بواجب وظيفته ، وأن يحقق لقومه انتصارات اعلامية تشيد بالأمجاد وكل ما يمكن أن يفخر

به الخزرج ، وفى نفس الوقت يغطى هزائمهم وكل ما يمكن أن يشين وضعهم الاجتماعى .

وقد أكسبت حسان هذه الوظيفة عنفا فى شخصيته ، وتهورا فى طبيعته وهما الصفتان اللتان تلزمان الشاعر القبلى حتى يستطيع أن يدافع عن عصبية القبيلة وأن يكافح فى سبيل بقائها ، ولقد دفعه هذا العنف وذلك التهور الى أن يطلق امرأته عمرة بنت الصامت — وكان يحبها حبا شديدا — لأنها كانت قد عرضت بأخواله ثم ندم بعد ذلك وعبر عن هذا الندم مرات كثيرة فى شعره . وسوف نجد أثر هاتين الصفتين أيضا عندما تتطور شخصيته فى الاسلام .

وقد كان لسان حسان حادا وسخريته شديدة ، وكلا الصفتين تلزم أيضا وظيفته القبلية .جاء أن الحطيئة وقف على حسان وحسان ينشد من شعره فقال له حسان وهو لا يعرفه : كيف تسمع هذا الشعر يا أعرابى ؟ قال الحطيئة : لا أرى به بأسا ! فغضب حسان وقال : اسمعوا الى كلام الأعرابى ، ما كنيتك ؟ قال : أبو مليكة . قال حسان : ما كنت أهون علىّ منك حين كنيت بامرأة !

ويقول ساخرا فى هجاء خصومه :

لا عيب بالقوم من طول ومن عظم
جسم البغال وأحلام العصافير

كما يقول فى سخرية ضاحكة هاجيا قبيلة جذام :

لعمر أبى ســـمية ما أبالى   أنب التيس أم نطقت جذام
اذا ما شاتهم ولدت تنــادوا   أجدى تحت شاتك أم غلام

وسوف نجد أن سخريته هذه وحدة لسانه سوف يستغلها استغلالا رائعا فى الاسلام عندما يقف مناقضا لشعراء المشركين . ويظهر أن حسان شارك بسيفه أيضا فى حروب قومه كما شارك بشعره ، وقد تسبب ذلك فى قطع أكحل يده كما أشرنا من قبل ، وقد جعله ذلك يحجم عن المشاركة فى غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم فيما بعد .

كان حسان اذن وبهذه الصورة صحيفة الخزرج اليومية ، وقد نجح فى تسجيل ونشر ما يرفع من شأن قومه وما يشبع من كبريائهم وغطرستهم القبلية .

وقد كان لدوره هذا أثر فى نجاحه فيما بعد فى احتلال مركز شاعر المسلمين المنافح عن رسولهم بعد أن خبر هذا الدور وتدرب على مشاقه ما يقرب من أربعين عاما نظم فيها الشعر فى جاهليته .

أما ارتباطه الحيوى بمصادر الثروة فى الشمال فقد كان ذلك طبيعيا من ناحيتين أولاهما رغبته فى التكسب لأن ماله فى القبيلة قليل على كثرة ما أعطاه قومه وكان يرى شعراء القبائل الأخرى لا يقتصرون فى هذا الوقت على أسهمهم فى قبائلهم وانما يلجأون الى الامارات الشمالية ليزيدوا من ثرواتهم . أما الناحية الأخرى فهى أنه عندما كان يلجأ الى الغساسنة لم يكن كغيره من الشعراء المادحين الذين يدبجون القصائد وهواهم كله أن ينالوا المال بقدر ما يبالغون فى تصوير ممدوحيهم وانما كان يلجأ الى ذوى

قرباه ، فاذا مدحهم فهذا فخر لنفسه ، واذا رفع من شأنهم فهذا تمجيد لقبيلته ، واذا أشاد بأنسابهم ، فهذا تزكية لأصله اليمنى وهنا نجد مدائح حسان تختلف عن غيرها عند الشعراء الآخرين ففى كل مكرمة يضيفها للغسانيين افتخر بها ، وكل فضيلة وصفهم بها هلل لها لأنها احدى فضائل قومه ، وهذا ما وضحناه عندما عرضنا قصيدته فى مدحهم التى منها :

سألت حسان من أخـــواله   انما يسأل بالشىء الغمــــر
قلت أخوالى بنــو كعب اذا   أسلم الأبطال عــورات الدبر

الى أن يقول :

منهم أصـــلى فمن يفخر به   يعرف النــاس لفخر المفتخر
نحن أهل العــز والمجد معا   غــير أنكاس ولا ميل عسر
فسلوا عنا وعن أفعالنــــــا   كل قوم عنــدهم علم الخبر

اذن امتزج المدح بالفخر عند حسان وبذلك اختلف حسان فى مدائحه عن غيره من الجاهليين الذين كانت قصائدهم يستغرقها المديح كله الا من مقــدمة طللية أو غزلية أو وصف للطريق أو للراحلة .

لذلك أيضا نجد أن مديح حسان تسوده نزعة خطابية على خلاف طبيعة هذا الفن . فالنزعة الخطابية من شأن الفخر وليس المدح ، ولكن امتزاج الموضوعين عند الشاعر أشاع هذه اللهجة فيهما معا .

ونستطيع أن نعمم قليلا اذا قلنا ان مدائح حسان للغسانيين استمرار لفخره القبلى ، وتعبير عن عصبيته اليمنية .

وقد كانت هـذه العصبية اليمنية هى التى جعلت الخزرج والأوس معا عندما يتعرضون لخطر دائم من جيرانهم من اليهود يستعينون بالغساسنة الذين كانوا لا يتأخرون فى تلبية استغاثتهم كما تشهد بذلك الأحداث . فالغساسنة هم الذين ساعدوا القبيلتين على دخول يثرب فيها بعد أن كانت القبيلتان تنزلان فى أول الأمر فى خارجها ، ثم كان الغساسنة هم الذين ساعدوا القبيلتين على أن يفرضا سيطرتهما على المدينة وأن يزعزعا من مركز اليهود فيها لذلك كان حسان يعتبر الغساسنة الدرع الواقى له ولقومه . وكانت زياراته السنوية لهم عنوانا للصلة الوثيقة التى تربطه بهم ، والتى يحرص على توطيد عراها هو وقبيلته .

ولم نستطع أن نعرف اللهجة التى كان يمدح بها المناذرة ، فما وصل من شعره فى مدحهم نادر ولا يصور شيئا ، وان كنا نحس بنبرة الفخر أيضا عندما أطلق له النعمان بن المنذر بعض أفراد قومه الذين كانوا فى أسره ، وكأن النعمان بذلك يريد أن يكسب جانبه ، ويرغب فى أن يضمه الى بلاطه ، وبذلك يفقد أعداءه الغساسنة سلاحا من أسلحتهم .

ولقد أتاحت زيارات حسان للشمال أن يطلع عـلى مظاهر أكبر حضارتين موجودتين فى عهده : الرومانية والفارسية ، ولقد نقل بعض مظاهر هاتين الحضـارتين فى شـعره كما كان يراها متمثلتين فى الامارتين الخاضعتين لهما ، وكان لما رآه أثر فى اثراء صوره ، واكسابها ألوانا جديدة لم تكن تتح له أو لغيره وخاصة مجالس الخمر والغناء وحسناوات الرومان فمن الأوصاف الجديدة

حديثه عن الجبال التى تكسوها الثلوج عندما كان يمدح عمرو ابن الحارث يقول :

من يغر الدهـــــر أو يأمنه　　من قبيـــل بعد عمرو وحجر
ملكا جبـــل الثـــلج الى　　جانبى أيلة من عبد وحـــر

كذلك وصفه لحسناء شاهدها فى الشمال :

وحلفت لا أنسى حديثـك ما　　ذكر الغوى لذاذة الخمـــر
ولأنت أحسن اذ برزت لنـا　　يوم الخروج بسـاحة القصر
من درة أغلى الملوك بهـــا　　مما تربب حائر البحـــر [1]

وأيضا وصفه لأنهار الشمال حينما تصفق مياهها فيقول :

يســـقون من ورد البريص عليهم
بردى يصفق بالرحيـــق السلسل

وقد يكتسب شعر حسان شيئا من الرقة والليونة دون أن يفقد متانة التركيب وجزالة اللفظ وذلك عندما يصف مجالس الخمر وندمائها وحسناواتها فيعبث ويتدلل كأن يقول :

ان التى ناولتنى فرددتهـــــــا
قتلت — قتلت — فهاتها لم تقتــل

نعم ! انه يدعو على الساقى عابثا أن يقتل كما قتل الخمر بمزجها بالماء لأنه يريدها صافية معتقة ، وهى رقة لم تكن ميسرة لغيره ممن لم يشهدوا ما رآه .

وسوف نجد أثر تمرس حسان بفن المدح فى مدحه للنبى

(١) قوله تربب حائر البحر يعنى الدرة التى يربيها الصدف فى قاع البحر . والحائر : مجتمع الماء .

صلى الله عليه وسلم وللمسلمين عندما يدخل فى دين الله ، ويصبح شاعر الرسول عليه السلام .

بقيت النقطة الأخيرة فى هذا الموضوع وهى ارتباط حسان الفنى بذاته وكيف استطاع أن يعبر عن فرديته بكل كوامنها ، وأن يحقق لها انطلاقها من ربقة هذا الاتجاه الغيرى فى فخره القبلى ومدحه الغسانى .

قد يعترض معترض ويقول اذ فخر حسان القبلى تعبير عن ذاته ، ومدحه للغساسنة مواصلة فى التعبير عن هذه الذات ، ونحن لا ننكر ذلك ، فقد بيّنا أن ذاته امتزجت فى هذين الموضوعين وأصبح تعبيره عن قبيلته تعبيرا عن نفسه . ومدحه للغساسنة تمجيدا لهذه النفس ، ولكننى أريد هنا أن أوضح مدى ما استطاع حسان أن يثيره من كوامن نفسه دون الاعتماد على هذين الموضوعين ، وكيف استطاع أن يفعل ذلك لأن فى تفسيرنا لهذا اضافة لعنصر من عناصر هذه الشخصية التى نعرض لها بالتحليل والدراسة .

لقد وضحت أن المقدمة الطللية الغزلية ثم الوصف هما المثيران اللذان يمكن أن يفجرا فى الشاعر القديم مكنون انفعالاته ، وأن يوضحا رأيه فى الناس والحياة . ومثل كل شاعر ، وجدنا أن التراث الفنى السابق عليه قد أمده بتقاليد يخضع لها دون ارادته ، ويحمل فنه بها دون أن يكون له دخل فى ذلك ، لأننا نلمح حدائق امرىء القيس وأوس بن حجر وزهير ولبيد وغيرهم من الشعراء تلقى ظلالها على شعره وتشيع عبيرها فى أريجه .

واذا كانت زوجتا حسان عمرة وشعثاء قد حجبتا عنا صور النساء الأخريات اللائى قد يكن قد التقين بحسان وأثرن فى نفسه وشعره فان هاتين المرأتين استطاعتا أن تشغلا حسان بسبب حبه لهما وانفصاله عنهما ، وأن يشغلا أيضا معظم قصائده ، يبثهما فيها نشوة الحب والجوى ، ويعبر فيها أيضا عن ألم الفراق والهجران ، فها هو ما زال يرجو لقاء شعثاء ولو بعد لأى ، ويعدها بأن يهدى لها كل عام قصيدة يذكرها فيها :

تلاق بعيد واختلاف من النـــوى
تلاقيكها حتى توافى موســـما
سأهدى لهـــا فى كل عام قصيدة
وأقعد مكفيا بيثرب مكرمـــا

أما اذا بحثنا عن فتاة أخرى غير زوجتيه يكون قد ذكرها فى شـعره ، فسوف نجد واحدة تسمى ليلى ، قد نأت بديارها ، وهمت بقطع ما بينه وبينها من حب ، غير أن حسان حريص على حبه ، متمسك به ، فهو باق على العهد ، محافظ عليه ، واذا كان الواشون قد حاولوا أن يوقعـوا بين الاثنين فقد أخطأوا فيما تقولوا به وما أضافوه اليه ، ويكفى أن تسأل فتاته عنه النـاس لتعلم حقيقته ، وتفهم مخبره . يقول :

فان تك ليـــلى قد نأتك ديارها
وضنت بحاجات الفـــؤاد المتيم
وهمت بصرم الحبـل بعد وصاله
وأصغت لقول الكاشـــح المتزعم

فما حبلنا بالرث عنـدى ولا الذى
يغـيـّره نأى ولـو لم تكلم
وما حبها لو وكلتنى بوصـله
ولو صرم الخـلان بالمتصرم
لعمر أبيـك الخير ما ضاع سركم
لدى فتجزينى بعـادا وتصرمى
ولا ضقت ذرعا بالهوى اذ ضمنته
ولا كظ صـدرى بالحديث المكتم
ولا كان مما كان مما تقـولوا
عـلىّ ونثّوا غير ظن مرجم (١)
فان كنت لما تخبرينى فسـائلى
ذوى العلم عنـا كى تنبى فتعلمى

واذ كان وصف الطبيعة — الحية والجامدة — يتيح للشاعر أن يعكس نظرته الى الحيـاة على هذا الموضوع ، أو يسمح لطبيعته الخـلاقة أن تتمثل الجمـال المطلق من خلال جزئيات الكون ، فان الشاعر الجاهلى ما كان بمادية ارتباطه بالطبيعة ، وحسية تصويره للأشياء بمستطيع أن يطلق تذوقه من قيود النظر فى جزئيات الطبيعة والتمتع بجمالها النسبى الى آفاق التجريد المعبر عن فلسفات الحق والخير والجمال ، لذلك تحددت النزعة الانسانية عنـد الشـعراء الجاهليين بتلك الأطر التى تمنع من

---

(١) نثوا : نشروا ، اشاعوا .

الانطلاق والشمول ، وأعنى بها قيـود الحس المباشر والمادية القريبة منه

ويختلف الجاهليون فى رؤاهم الشعرية ومصادرها ، فيعتمد أكثرهم عـلى تمثل الحياة اليومية وما توحى به عناصرها من دلالات عامة ، فاتساع المرعى وكثرة الكلأ يرتبط عندهم بخصوبة الحياة واستمراء السعادة ، وجفاف الأرض ونضوب الآبار يدفعهم الى التعبير عن الهجـر والرحيـل وما يخلفانه من أسى ولوعة وضياع ، أما القليل فيقف عنـد مفارقات الحياة ليبين موقف الانسان منها . وقد نجح حسان فى أن يغرف من المصدرين ، فتنوعت رؤاه ، وتحققت له بذلك نغمة الشاعر الغنائى الأصيل .

وكان حسان قادراً على تحميل لغته رؤاه الشعرية ، فلم ينبُ به لفظ ، ولم يتعثر عنده تعبير . كذلك كانت موسيقاه سليمة متفقة فى عنفها أو رقتها مع الموضوع الذى ينظم فيه .

ذلك حسان فى الجاهلية : قبلىٌ مادحٌ فنان !

القسم الثاني

حسّان في الإسلام

الفصل الأول

يثرب والثورة الفكرية الجديدة

استمرت الأحوال الاجتماعية بيثرب مضطربة بسبب الحروب الطاحنة التى كانت تنشب بين قبائل الأوس والخـزرج أو بينها وبين قبائل اليهود ، أو بين احداها وقبائل أخـرى من خارج المدينة ، ولم يكن اليثربى يأمن على نفسه أو أسرته أو ماله اذا خرج من حصنه ، فخمد النشـاط الاجتماعى والاقتصادى فى المدينة ونزل الضيق بالناس ، وأصبحوا يتطلعون الى معجزة يمكن أن ترجع الحياة المزدهرة الى المدينة ، وأن تجعلها تنافس مرة أخرى مكة التى فاقتها استقرارا ورواجا بسبب استتباب الأمن بها وازدهار النشاط الاقتصادى فيها .

وبعث النبى صلى الله عليه وسـلم فى مكة ، ولاقى هـو والمسلمون الأوائل ضغطا شديدا من المشركين ، وعذابا قاتلا من قريش التى وقفت ضد هذا الدين الجديد . ولم تكن يثرب تبعد عن مكة كثيرا ، كما كانت للرسول علاقة قوية تربطه بها قبل

البعثة . ففيها أخوال جده عليه السلام [1] ، وكانت أمه آمنة بنت وهب رضى الله عنها الزوج الوفية — تحج مع عبد المطاب الى يثرب لزيارة قبر زوجها — والد الرسول صلى الله عليه وسلم [2] — وقد صحبها الرسول الى هـذه المدينة وهو فى السادسة من عمره ، فزار معها قبر أبيه ، ثم قفلا عائدين ، وفى الطريق مرضت آمنة رضى الله عنها وماتت ودفنت بالأبواء فى منتصف الطريق بين يثرب ومكة . فلا عجب أن تكون هجرة الرسول الى هـذه المدينة التى يرتبط بها بذكرياته ومشاعره وذوى قرباه .

وكانت هناك عوامل دفعت سكان يثرب الى أن يستبقوا غيرهم فى الدخول فى دين الله أفواجا ، وأول هـذه العوامل مجاورتهم لليهود أصحاب الديانة السماوية ، العارفين بأخبار الرسالات السابقة ، وكان اليهود يتحدثون دائما عن رسول يظهر ويبشر بدين يشبه دينهم ، وكانوا يؤملون أن يكون هذا الرسول من بينهم ، لذلك كانت يثرب بسكانها من العرب واليهود أرضا خصبة للدين الجديد ، وبيئة معدة اعدادا روحيا لتقبل الرسالات السماوية .

غير أنه ليس من السهل أن يكون هذا العامل هو الذى دفع أهل يثرب الى الدخول فى الاسلام فحسب وخاصة أن انتشار

---

(١) أم عبد المطلب بن هاشم : سلمى بنت عمرو من بنى النجار من الخزرج .

(٢) كان والد الرسول عليه السلام قد مرض فى الطريق أثناء رجوعه من تجارة لقريش بالشام ثم توفى بالمدينة ودفن بها .

الاسلام فى يثرب لم يلق مقاومة تذكر بجانب المقاومة التى لاقاها فى مكة والتى لم يتم دخول كل أهلها فى دين الله الا بعد فتحها .

اذن لا شك أن هناك عوامل أخرى ساعدت على سرعة انتشار الدين الجديد . ويمكن أن نجد هذه العوامل فى الظروف الاجتماعية التى كانت تعيش فيها هذه المدينة قبل الاسلام ويفسرها الالتقاء الذى تم بين الرسول عليه السلام وبين وفود هذه المدينة فى العقبة الأولى والعقبة الثانية .

لقد عرفنا فى القسم الأول من هذا الكتاب الصراع القبلى العنيف الذى كان يضطرم أوراه بصورة دائمة فى قبائل يثرب والذى شارك فيه شعراء هذه القبائل ، وكيف كانت هذه القبائل تلتمس الحلف فى قبائل العرب الأخرى طلبا للنصرة منها والعون ، فمنها من كان يستجيب لهم ومنها من كان يرفض أن يزج بنفسه فى حرب لا يعلم نتيجتها . وكان مندوبو قبائل الأوس والخزرج يخرجون الى القبائل للبحث عمن يقبل التحالف معهم ونصرتهم . ونجد فى سيرة ابن هشام أول احتكاك بين هؤلاء المندوبين وبين الرسول صلى الله عليه وسلم . فقد حدث قبل بيعة العقبة الأولى أن قدم أبو الحيسر أنس بن رافع مكة ومعه فتية من بنى عبد الأشهل — من الأوس — فيهم اياس بن معاذ يلتمسون الحلف من قريش على قبيلة الخزرج ، وسمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاهم ودعاهم الى الاسلام وتلا عليهم القرآن . فقال اياس وكان غلاما حدثا : أى قومى ! هذا والله خير مما جئتم له . فرمى أبو الحيسر أنس بن رافع وجه اياس

بحفنة من تراب وقال له : دعنا منك فلعمرى لقد جئنا لغير هذا . فصمت اياس ورحلوا الى المدينة ثم كانت وقعة بعاث بين الأوس والخزرج [1] .

كان هذا أول لقاء بين أهل المدينة والرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان الرسول عندئذ لم يشتهر أمره ولم تظهر قوته ، ولكن سرعان ما شاع أمره فى القبائل وقوى جانبه بكثرة أتباعه وصمود أنصاره . ثم التقى مرة أخرى بوفد من أهل يثرب وهنا نجد أهل يثرب يجدون فيه الرجل الذى يستطيع أن يصنع المعجزة ويشيع الأمن والسلام فى مدينتهم المتطاحنة .

كان خبر هذا اللقاء عندما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى موسم من مواسم العرب — كما كان يفعل دائما — ليعرض نفسه على قبائل العرب ، فبينما هو عند العقبة لقى رهطا من الخزرج فسألهم صلى الله عليه وسلم : من أنتم ؟ قالوا : نفر من الخزرج ، قال : أمن موالى يهود ؟ قالوا : نعم ، قال : أفلا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا : بلى . فجلسوا معه صلى الله عليه وسلم وعرض عليهم الاسلام . وعندئذ تذكروا قول اليهود لهم ان نبيا قد حان وقت بعثه وقد أطل زمانه وسيتبعونه ليقتلوهم كما قتلت عاد وارم . فلما كلمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاهم الى الله قال بعضهم لبعض : يا قوم ، تعلموا والله انه للنبى الذى توعدكم به يهود . فلا تسبقنكم اليه . فأجابوه عليه

(١) سيرة ابن هشام ١ : ٦٩ . ويقال ان اياس مات بعد ذلك مسلما .

السلام فيما دعاهم اليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الاسلام ، وقالوا : انا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم ، فندعوهم الى أمرك ، ونعرض عليهم الذى أجبناك اليه من هذا الدين ، فان يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك [1] . ثم قدموا المدينة وذكروا أمر هذا النبى الجديد ودعوهم الى الايمان به حتى اذا كان العام القادم وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلا فلقوه بالعقبة فكانت البيعة الأولى .

تلك هى نظرة الأوس والخزرج الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أول الأمر ، فهم يرجون أن يجمع الله شملهم به ، وتخمد الفتنة الناشبة بينهم بقيادته ، وهو الذى يدعوهم الى الأخوة والسلام ، ويستطيع أن يملأ الفراغ الذى كان يشعر به سكان يثرب فى الرئاسة غير المتحيزة ، وفى العقيدة التى تقف ضد عقيدة اليهود ، وفى التنظيم الداخلى لمدينتهم بعـــد أن سادها الاضطراب ، وعمها الشعور بفقدان الأمن اليومى ، اذ لم يعد الرجل منهم يدرى أيثأر اليوم منه أم من غيره .

يقول فلهوزن ان الأحوال السياسية فى المدينة كانت مواتية للرسول صلى الله عليه وسلم ففى مكة كان يسود الهدوء والنظام ، وكانت العوامل التى تربط بين الجماعة تؤدى وظيفتها على نحو مرض ، ولذلك أحس المكيون بأن الشىء الجديد الذى أراد

---

(١) سيرة ابن هشام ١ : ٧١ .

النبى أن يدخله فى مكة يهدد حياتهم ويكدر صفوها فعملوا على القضاء عليه . أما فى المدينــة فقد انقسمت الجمــاعة فيها الى معسكرين متعاديين هما الأوس والخزرج ، فكان القتل والسفك شيئا مألوفا ، ولم يكن أحد يجرؤ على الخروج من حيه دون أن يعرض نفسه للخطر . وسادت المدينة حال من قلة الأمن جعلت الحياة فيها غير ممكنة ، فكانت الحاجة ماسة الى رجل يدخــل الفرجة المفتوحة بين الفريقين ويقضى على الفوضى ، ولم يكن هناك بد من أن يكون رجلا محايدا لا تشوبه شائبة التورط فى المنافسات الداخلية بين القبيلتين . لذلك جاء النبى من مكة فى الوقت المناسب وكأنما نودى لذلك . ولما كانت لحمة الدم قد فشلت فى أن تكون رباطا يؤلف بين الناس فقد كان هناك أمــل قوى فى أن تحقق ذلك العقيدة [1] .

ونستطيع أن نلمح عاملين آخرين فى تقبل يثرب للدين الجديد أولهما يتضح عن قول أحد الخزرج الذين قابلهم الرســول : يا قوم والله انه للنبى الذى توعدكم به يهود فلا تسبقنّكم اليه ، فقد كان اليهود قد رسّخوا فى أذهانهم أن النبى آت لا ريب وسوف ينضمون اليه لينتقموا من كلا القبيلتين .

خاف اذن عرب يثرب أن يجد اليهود فى الرسول صلى الله عليه وسلم حليفا كما كانوا يقولون فيزداد اليهود بذلك منعة ، ويزداد موقف الأوس والخزرج ضعفا لذلك وجـدوا أن من مصلحتهم أن يسبقوا اليهود فى أن ينضموا الى صفوف رسول

---

(١) قيام الدولة العربية لفلهوزن ٦ ــ ٧ .

الله صلى الله عليه وسلم وأن يدخلوا فى دينه قبل غيرهم . وما كانوا يعلمون أن اليهود لن يؤمنوا أبدا بدعوته صلى الله عليه وسلم رغم علمهم بنبوته وتبشيرهم بها وفيهم جاء قوله تعالى « ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين » [1] .

أما العامل الآخر فيتضح من دراسة اثبات أسماء وفود يثرب قبل العقبة الأولى ثم فى العقبة الأولى والعقبة الثانية .

كان الوفد الذى قابل الرسول صلى الله عليه وسلم قبل بيعة العقبة الأولى مكونا من ستة نفر جميعهم من الخزرج [2] ثم كانت العقبة الأولى ووفد فيها على النبى اثنا عشر رجلا عشرة من الخزرج واثنان من الأوس ، أما فى العقبة الثانية فسنجد أن من وفد فيها اثنان وستون رجلا من الخزوج وأحد عشر رجلا من الأوس ، كذلك وفدت امرأتان من الخزرج . وكان اختيار النقباء بعد العقبة الأولى تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس . وهنا نلاحظ رجحان كفة الخزرج فى السبق الى الاسلام واهتمامها بأمره ، ويمكن أن نرجع ذلك الى سببين أولهما خروجها منهزمة من حرب بعاث فكان هذا دافعا لها أن تبحث عن مجال جديد تسد به رمق الهزيمة ، ورغبة فى الوصول الى عنصر آخر من خارج المدينة يهبها القوة والمنعة بعد أن تكاتف اليهود والأوس ضدها فى حرب

(١) سورة البقرة .

(٢) سنعتمد فى هذه الاحصاءات على سيرة ابن هشام .

بعاث ، أما السبب الآخر فقد كانت تتخيل أنها سوف تجد فى رسول الله صلى الله عليه وسلم نصيرا موثوقا به فهو ليس بغريب عليها لأن أخواله منها ونسبه فى بنى النجار مرتبط بأقوى ب‍لمونها .

واذا كانت هذه العوامل وغيرها قد ساعدت فى انتشار الاسلام فى يثرب فى أول الأمر فلا شك أننا نوقن بأن هذه العوامل اختفت بعد ذلك وأصبح هذا الدين الجديد هو الذى يربط القبيلتين الكبيرتين وهو الذى يدفعها لنصرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويجعلها تتسابق فى الاستشهاد فى سبيل نشره والحفاظ عليه .

كانت مدينة يثرب اذن متفتحة للرسول صلى الله عليه وسلم ، فانتشر فيها الاسلام بسرعة بل وبأسرع من أن يتيح لليهود فرصة تدبير المؤامرات لعرقلة اكتساحه . وقام مصعب بن عمير الذى أوفده الرسول صلى الله عليه وسلم الى أهلها ليقرئهم القرآن ، ويفقههم فى الدين بمهمته خير قيام ، وأخذت الهجرة تتحول من الحبشة الى مدينة الرسول ، وهو الاسم الجديد ليثرب ، وأخذ المجتمع فى هذه المدينة يتغير تغيرا جوهريا ، وتتحدد له معالم حياة جديدة تختلف اختلافا تاما وعظيما عن معالمه فى الجاهلية .

ان أول تغيير حدث فى اسم يثرب ، لأن التثريب فى اللغة هو التعبير والتخليط ومن ثم أصبح اسمها الجديد مدينة الرسول، ولم يكن هذا التغيير ظاهريا فقط ، وانما شملها من الجذور ، فان المؤاخاة التى حققها الرسول بين المهاجرين وأهل المدينة هى أهم

ما أسس عليه الرسول دولته الجديدة ، وأروع عمل قام به الاسلام فى عهده ، كما أن هذه المؤاخاة هى أعظم دليل على قدرة الرسول فى تغيير النفسية البشرية من أسوأ طبيعة لها الى أجمل صورة يمكن أن تكون عليها ، لذلك لم يعد الرسول يفرق بين القبيلتين تفريقا قبليا ، وانما أسماهم جميعا اسما واحدا هو الأنصار .

ولقد تغير نتيجة لهذا ميزان القوى فى المدينة ، كانت القوة والسيادة لليهود بعد حرب بعاث فأصبحت للأنصار بعد الهجرة وبعد دخول القبيلتين الكبيرتين فى الاسلام وكانت الحياة قبل الاسلام تسير على قوانين العرف والتقاليد والحق للقوة فأصبحت بعد الاسلام تسير على قوانين الشريعة الاسلامية والحق لصاحب الحق .

خمدت اذن نيران الحروب القبلية بين القبيلتين فى مدينة الرسول ، ولم يعد الشعراء يجدون موضوعا آخر ينظمون فيه ويعبرون عن ذواتهم من خلاله كما كانوا يفعلون فى الجاهلية ، غير أن قريشا سرعان ما خلقت لهم الموضوع الجديد وذلك عندما أخذ شعراؤها فى هجاء الرسول والمسلمين .

ولم يسكت الأنصار ، وطلبوا الاذن من الرسول فى الرد عليهم ، فأذن لهم واذا بالألسنة التى حبست مدة فى حلوقها تخرج لترد على شعراء المشركين ، ونشبت بذلك المعركة الفنية التى استمرت نيرانها مشتعلة حتى يوم فتح مكة ودخول العرب جميعا

فى دين الله أفواجا وكان حسان بن ثابت الفارس المعلم فى هـــذه المعركة الفنية .

وقد وضع الرسول للمسلمين واليهود فى يثرب عقب هجرته نظاما جديدا يضمن به الاستقرار والأمن فى المجتمع الجديد . وقد حفظت لنا الأيام كتاب الرسول صلى لله عليه وسلم الذى يوضح هذا النظام . يقول عليه السلام فى أوله : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب محمـــد صلى الله عليه وسلم بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم ولحق بهم وجاهـــد معهم [1] .

وأهم ما يظهر فيه أن أهل المدينة أصبحوا منذ ذلك الحين أمة واحدة ، غير أن الأمة فى هذا الكتاب لها صبغة دينية . يقول فلهوزن [2] : هى جماعة الله التى ترعى مبادىء الاسلام ومبادىء حماية الجار ونصرة المظلوم ، والله تعالى هو الذى يشرف عليها ، ومحمد عليه السلام يشرف عليها باسمه ، والايمان هو رباط الاتحاد ، والمؤمنون هم ممثلو معناه ، وهم أول من يجب عليهم الوفاء للاتحاد ، وفى الوقت نفسه أول من يتمتعون بالحقـــوق التى يخولها ، والأمة لا تشتمل على المؤمنين بل هى أيضا تتألف من كل من يتبعهم ويحارب معهم ، أى من كل أهل المدينة ، والأمة لها منطقة من الأرض اجمالية ، فكل جوف المدينة ينبغى أن يكون حرما وأرض سلام لا يعتدى فيها أحد على أحد . وكان

---

(١) انظر نص الكتاب فى سيرة ابن هشام ٢ : ١٤٧ ــ ١٤٩ .
(٢) تاريخ الدولة العربية ١٢ ــ ١٣ .

بين الأنصار فى أول عهدهم قوم مشركون ولكنهم لم يستبعدوا من الأمـــة بل أدمجوا فيها بنص صريح ، وكذلك شملت الأمة اليهـــود وان كانوا لا ينتمون اليهـــا انتمـــاء وثيقا كالمهاجرين والأنصار ، كما أنه لا تقع عليهم نفس الواجبات وليس لهم نفس الحقوق ، وعلى هذا فلم تكن درجة الانتماء للأمة واحدة بحيث بقى ما يشبه التمايز العربى القديم بين أصحاب الحق الكامل وبين غيرهم من تابع ونزيل ، ومما له نفس الأهمية أن الأمة رغم أنها كانت تشمل المشركين واليهود فانها لم تكن تتكون من أفراد وانما كانت تتكون من جماعات فالفرد لا ينتمى الى الأمة الا من طريق العشرة والقبيلة . فقد جاء فى هذا الكتاب أن تبقى القبائل كما هى وأن تدخل فى الأمة على صورتها .

أما فيما يتصل بالعلاقة بين الأمة والقبائل وبتحديد سلطة كل منهما وواجباتها فقد بقيت على القبائل النفقات التى ليست بذات صبغة معينة وخصـــوصا دفع الدية وفداء الأسرى ، ذلك لأنه لم تكن قد وجدت بعد خزانة للأمة كذلك بقى للعشيرة والقبيلة الولاء ، فلا يسوغ لأحد أن يدعو مولى الى مخالفة مولاه ، بل لقد بقى حق الاجارة ولم يقيد بأية قيود ، فلكل فرد الحق فى أن يجير شخصا عربيا ما عدا مشركى قريش وهو بذلك يلزم الجماعة كلها .

وهكذا كان على القبائل أن تتنازل عن حق الأخذ بالثأر لأن غاية الأمة منع الحرب فى الداخل ، فاذا قام نزاع وجب أن يعرض على ولى الأمر . وقد نفذ مبدأ العقاب تنفيذا صارما ،

وانكسرت شريعة رابطة الدم ، وبذلك تفادت المدينة الغارات القديمة واستعدت لمحاربة العدوان الخارجى . وقد نص الكتاب على اتحاد القبائل على رد العدوان من الخارج ، وعلى أن ينصر المؤمنون بعضهم بعضا ، وأن أعداء الأمة الظاهرين هم قريش ، لذلك تكاتف المؤمنون ، وقامت الأمة بواجبها فى صد غارات قريش والخروج فى غزواتها المشهورة . وقد ساعدت هذه الغزوات على توطيد أركان الأمة من الداخل قبل أن تساعدها على صد العدوان الخارجى ونشر الاسلام فى ربوع الجزيرة ، فقد رفعت هذه الغزوات الروح المعنوية للمؤمنين فى يثرب وخاصة بعد تلك الانتصارات المتتابعة فى هذه الحروب ، غير أن أهم من هذا كله أن هذه الحرب كشفت للمسلمين النقاب عن أوجه المنافقين من عرب يثرب وحقد اليهود على الرسول وأتباعه — الذى كانوا يضمرونه له ويتحينون الفرصة للقضاء عليه وعلى هـذا الدين الجديد ، بل واشعال الفتنة مرة أخرى بين أنصاره من الأوس والخزرج والمهاجرين . ولذلك وتحت ظروف الحرب لم يعد يسمح الرسول للمشركين بأن يبقوا داخل المدينة وهم على شركهم ، فاعتنقوا الاسلام ، غير أن موقف اليهود من الرسول والاسلام كان أسوأ من موقف المنافقين لهما .

لقد فوجىء اليهود بانتصارات المسلمين الباهرة ، ووجدوا أن مكانتهم فى المدينة لم تعد كما كانت عليها قبل الهجرة ، وكانت المؤاخاة بين الأوس والخزرج ضربة قاتلة لهم ، اذ لم تعد هناك فرصة لبذر بذور الشقاق والفتنة بينهما كما كان يحدث من

قبل ، لذلك أخذوا يرمون الأنصار بقوارص الكلم ويفتنونهم فى دينهم ويجادلون الرسول مجادلة المستهزىء المضمر للعداوة والحقد ، فنزل الوحى يكشف أمرهم « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا » (١) وأخذ القرآن ينصح المؤمنين بأن يبتعدوا عنهم وأن يتجنبوهم . « وقد نزل عليكم أن اذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره » .

واشتد حقد اليهود على المسلمين وخاصة بعد أن أسلم أحد أحبارهم الكبار وهو عبد الله بن سلام وكان قد اتصل بالنبى صلى الله عليه وسلم هو وأهل بيته وأسلموا جميعا .

أخذ اليهود يدسون للمسلمين ، يشاركهم فى ذلك بعض المنافقين ، وكانوا يسألون الرسول بقصد احراجه كأن يقولوا : اذا كان الله قد خلق الخلق فمن خلق الله ؟ وكان عليه السلام يجيبهم بقوله تعالى : « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » .

وحدث أن شابا يهوديا مر بجماعة من المسلمين من الأوس والخزرج فأراد أن يوقع بينهم الفتنة فذكرهم بيوم بعاث الذى كان قد انتصر فيه الأوس على الخزرج . فقام الأوسيون يفخرون على الخزرجيين وكاد ينشب بينهم القتال لولا أن خرج الرسول اليهم فذكرهم بما ألف الاسلام بين قلوبهم ، وبما ساوى الدين

---

(١) المائدة ٨٢ .

بينهم فى الدنيا والآخرة . ففطنوا الى فتنة اليهودى وعانق بعضهم بعضا ، واستغفروا الله جميعا .

واشتد الجدل بين الرسول عليه السلام وبين اليهود ، فنزل الوحى الكريم يرد عليهم انكارهم ما فى كتبهم ، ويلعنهم لكفرهم وانكارهم : « ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى بن مريم البيّنات وأيدناه بروح القدس ، أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون . وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون . ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، فلعنة الله على الكافرين » .

ولم يقنع اليهود بمحاولتهم لبث الفتنة بين الأوس والخزرج وبين المهاجرين والأنصار بل أرادوا أن يفتنوا الرسول نفسه صلى الله عليه وسلم حينما قالوا له : انك قد عرفت أمرنا ومنزلتنا ، وانا ان اتبعناك اتبعك اليهود ولم يخالفونا ، وان بيننا وبين بعض قومنا خصومة فنحتكم اليك فتقضى لنا فنتبعك ونؤمن بك ، فنزل فيهم قوله تعالى : « وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك ، فان تولوا فاعلم انما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وان كثيرا من الناس لفاسقون . أفحكم الجاهلية يبغون ؛ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون » (١) .

---

(١) المائدة ٤٩ .

وفكر اليهود مرة أخرى كيف يمكرون به عليه السلام ، فرأوا أن يقنعوه بالجلاء عن المدينة وذلك بأن يزور بيت المقدس ويتخذ من هذه المدينة مقرا له مثل كل الأنبياء وأن يجعل يثرب وسطا فى هجرته بين مكة وبين بيت المقدس . وفطن النبى عليه السلام أنهم يمكرون به .

وأوحى الله اليه عندئذ بأن يجعل قبلته الى المسجد الحرام بيت ابراهيم واسماعيل بعد أن كانت القبلة حتى هـذا الوقت وعلى رأس سبعة عشر شـهرا من مقامه بالمدينة تجاه المسجد الأقصى . « قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينّك قبلة ترضاها . فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولّوا وجوهكم شطره » (١) .

وينكر اليهود على الرسول ما فعل وحاولوا ارجاعه الى قبلته الأولى فينزل الوحى الكريم : « سيقول السفهاء من النـاس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ، قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء الى صراط مستقيم . وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على النـاس ويكون الرسـول عليكم شهيدا . وما جعلنا القبلة التى كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه . وان كانت لكبيرة الا على الذين هدى الله » (٢) .

وأثناء كل هذا الجدل والصراع الفكرى الدائر فى المدينة

---

(١) البقرة ١٤٤ .
(٢) البقرة ١٤٢ .

يفد وفد من نصارى نجران ، ولعل هذا الوفد انما جاء الى مدينة النبى حين علم بما بينه وبين اليهود من خلاف طمعا فى أن يزيد هذا الخلاف شدة حتى يبلغ العداوة ، فيريح النصرانية المتاخمة فى الشـــام وفى اليمن من دسائس اليهــود وعدوان العرب [1] وتجتمع الأديان الكتابية الثلاثة وتقوم ملحمة كلامية عنيفة بين اليهودية والمسيحية والاسلام ، فأما اليهود فينكرون رسالة عيسى ومحمد عليهما السلام ويزعمون أن عزيرا بن الله وأما النصارى فيؤمنون بالتثليث وألوهية عيسى ، وأما محمــد عليه السلام فيدعو الى توحيد الله خالق الكون وباعث الحياة من الأذل الى الأبد وكان اليهود والنصارى يسألونه عمن يؤمن بهم من الرسل فيقول « قل آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل على ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون » [2] .

أى ثورة فكرية حدثت فى يثرب ، تلك المدينة التى كانت تقتات بوقود القتال ، وبمرارة الأحقاد ، وبسم العصبيات . انها لم تعد تلك المدينة الشائعة فى جزيرة العرب ، تصدر أخبار الفتن ، وتقذف بشرارات الحريق ، وانما أصبحت منارا فكريا يشع ضوء الحقيقة فى ربوع الجزيرة العربية ، وينير مسالك العقــل

---

(١) حياة محمد . محمد حسنين هيـكل ٢٠٢ .

(٢) آل عمران ٨٤ .

ليخطو الانسان نحو مصدر النبوغ ، ويهدى شغف القلب التائه شاطىء الأمن واليقين .

وكما رأينا لقد صاحبت هذه الثورة الفكرية ثورة اجتماعية قامت أساسا على الرغبة فى توطيد دعائم الأمة الاسلامية الجديدة ، واخماد ضرام العصبيات القبلية .

غير أن اليهود لم يحترموا عهودهم ومواثيقهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأصبحوا فى هذه المدينة بل وفى هـذه الأمة الجديدة مصدر الخطر ، ومثار الفتنة .

وقد استطاعت الدولة الاسلامية بزعامة الرسول العربى أن تستأصل شأفتهم — وتطردهم خارج هذا المجتمع الجديد وقد تم ذلك على ثلاثة مراحل .

لقد تمت المرحلة الأولى بطرد قبيلة بنى قينقاع . فقد كانت اليهود منذ انتصار المسلمين فى غزوة بدر تتغامز وتأتمر وتحقر من شأن هذا الانتصار ، وتضمر الشر والخديعة خاصة بعد مقتل كعب بن الأشرف ، ثم حدث أن قدمت امرأة من العرب سوق بنى قينقاع ومعها حلية وجلست الى صائغ منهم بها ، فأرادوا أن تكشف عن وجهها فرفضت ، فجاء يهودى من خلفها وأثبت دون أن تدرى طرف ثوبها بشوكة الى ظهرها فلما قامت انكشفت سوءتها ، فصاحت ، فوثب رجل من المسلمين على اليهودى فقتله ، فشدت بنو قينقاع على المسلم وقتلوه ، وقام النزاع بين المسلمين واليهود ، وطلب الرسول صلى الله عليه وسلم من اليهود أن يكفوا شرهم عن المسلمين وأن يحفظوا الموادعة أو ينـزل بهم

ما نزل بقريش فى بدر ، فاستخفوا بوعيده صلى الله عليه وسلم وقالوا له : لا يغيرنك يا محمد أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة . انا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس » .

ولم يجد الرسول والمسلمون بدا من مقاتلتهم ، فحاصروا بنى قينقاع فى دورهم خمسة عشر يوما متتابعة لا يدخل اليهم انسان بطعام ولا يخرج منهم أحد لحاجة له ، ولم يبق لهم الا أن ينزلوا على حكم الرسول فيهم . فلما سلموا قرر الرسول بعد استشارة أصحابه قتلهم جميعا . غير أن عبد الله بن أبى بن سلول — وكان حليفا لليهود وحليفا للمسلمين — طلب من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يحسن فيهم . وكان ما يزال ذا سلطان فى المشركين من الأوس والخزرج . ورأى الرسول أن يسدى هذه اليد لعبد الله وللمشركين موالى اليهود حتى يصبحوا مدينين لاحسانه ورحمته ، فأمر أن تجلو بنو قينقاع عن المدينة تاركين وراءهم سلاحهم وأموالهم ، فخرجوا حتى بلغوا وادى القرى فأقاموا فيه زمنا ، ثم اتجهوا صوب الشمال حتى بلغوا أذرعات على حدود الشام وأقاموا بها .

خلت المدينة من اليهود اذن بهذه الطريقة ، فقد كان سائر اليهود المنتسبين للمدينة بعيدين عنها بخيبر وأم القرى ، وكان هذا هو أول تطهير للمدينة وما حولها من عناصر الفتنة وبذور الحقد . حتى يمكن اقامة المجتمع الاسلامى فى بيئة صالحة ، وتأسيس الأمة الاسلامية فى جو نقى .

وتمت المرحلة الثانية من اجلاء اليهود عن المدينة وضواحيها باجلاء بنى النضير ، فقد حدث أن طمعت اليهود فى الرسول وفى المسلمين بعد هزيمة أحد وبعد ما أصاب المسلمين فى يوم الرجيع من أسر وقتل بسبب خيـــانة هذيل للرجال الستة الذين وفدوا عليهم لتعليمهم الكتاب وتفقيههم فى الدين ثم ما أصاب المسلمين أيضا يوم بئر معونة بسبب اعتداء عامر بن الطفيل وقومه على من وفد من المسلمين الى نجد .

وجد اذن اليهود فى هــذه الأحداث ما أضعف فى نفوسهم هيبة الرســول صــلى الله عليه وسلم وهيبة أصحابه ، وفكر الرسول ، فرأى أن اليهود يتربصون به الدوائر وانهم مستعدون أن يثيروا انقساما داخليا فى المدينة ليطمعوا قبائل المشركين فى غزوها ، فأراد أن يستدرجهم لتتضح نياتهم ، ولما كان يهــود بنى النضير حلفاء بنى عامر ، فقد ذهب اليهم فى عشرة من كبار أصحابه يطلب اليهم معاونتهم فى دية قتيلين من بنى عامر كان قد قتلهما عمرو بن أمية خطأ (١) . وقد أظهر اليهود غيظهم بذلك فى أول الأمر ، ثم أخذوا يتآمرون بالرسول وبأصحابه وأحس

---

(١) عمرو بن أمية أحد اللذين نجوا يوم بئر معونة كان قد أطلقه عامر بن الطفيل عن رقبة : زعم أنها كانت على أمه ولقى عمرو رجلين فى الطريق حين عودته الى المدينة فحسبهما من القوم الذين عدوا على أصحابه فقتلهما بعد أن ناما . وبلغ المدينة وأخبر الرسول عليه السلام بشأنهما فاذا الرجلان عامريان من قوم أبى براء الذى كان قد أجار شهداء بئر معونة واغتالهم عامر بن الطفيل دون أن يراعى أجازة أبى براء .

الرسول أنهم ينوون اغتياله ، فما لبث أن انسحب من بين أصحابه راجعا الى المسلمين . وبعث الى اليهود محمد بن مسلمة قائلا له عليه السلام : اذهب الى يهود بنى النضير وقل لهم : ان رسول الله أرسلنى اليكم أن اخرجوا من بلادى . لقد نقضتم العهد الذى جعلت لكم بما هممتم من الغدر بى . لقد أجلتكم عشرا ، فمن رئى بعد ذلك ضربت عنقه . واستعد اليهود للقتال ولحصار المسلمين لهم فقاتلهم المسلمون عشرين ليلة ، ثم أمر الرسول أن يقطع نخلهم ويحرق حتى تضعف روحهم المعنوية . وجزع اليهود ونادوا يا محمد ، قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه فما بال قطع النخل وتحريقها . فنزلت الآية من سورة الحشر « ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فباذن الله وليخزى الفاسقين » . وانتظر اليهود العون ممن أطمعهم فى نصرته كعبد الله بن أبى . ولكن دون جدوى ، وملأ اليأس قلوبهم رعبا . سألوا الرسول أن يؤمنهم على أموالهم ودمائهم وذراريهم حتى يخرجوا من المدينة . فصالحهم الرسول على أن يخرجوا منها ولكل ثلاثة منهم بعير يحملون عليه ما شاءوا من مال أو طعام أو شراب ليس لهم غيره . واحتمل اليهود فنزل منهم من نزل خيبرا وسار آخرون الى أذرعات بالشام وتركوا وراءهم أموالهم وأراضيهم للمسلمين . وكان ذلك خير ما غنم المسلمون . على أن هذه الأرض لم تعتبر أسلاب حرب ولذلك لم تقسم بين المسلمين بل كانت للرسول صلى الله عليه وسلم يضعها حيث يشاء . وقد قسمها على المهاجرين الأولين دون الأنصار على اعتبار أنهم

لم يكونوا يملكون شيئا . وقد استبقى الرسول قسما خصصت غلته للفقراء والمساكين . وبذلك أصبح المهاجرون فى غنى عن معونة الأنصار وأصبح لهم مثل ثرواتهم . ولم يشترك فى القسمة من الأنصار الا أبو دجانة وسهل بن حنيف فقد ذكرا فقرا ، فأعطاهما الرسول كما أعطى المهاجرين . ولم يسلم من يهود بنى النضير الا رجلان سلما على أموالهما فأحرزاها .

ثم كانت المرحلة الثالثة والأخيرة فى طرد اليهود من بنى قريظة وذلك أن يهود بنى النضير عندما خرجوا من المدينة لم يسكتوا ، بل أخذوا يؤلبون القبائل ويحزبون الأحزاب ضد الرسول صلى الله عليه وسلم ، فذهب وفدهم الى قريش التى ظنت أنها خرجت من أحد منتصرة وأن غارة أخرى تنهى أمر الرسول وأمر المسلمين تماما ، لذلك اعتبرت تحالفها مع اليهود فرصة سانحة للقضاء على النبى صلى الله عليه وسلم وعلى المسلمين .ولما اطمأن اليهود الى نصرة قريش ذهبوا الى غطفان التى قبلت نصرتهم طمعا فى الغنيمة . وتهيأت الأحزاب للحرب وحفر المسلمون خندقا حول المدينة . ووعدت بنو قريظة الرسول صلى الله عليه وسلم أول الأمر أن تفى بعهدها للمسلمين ، ولكن سرعان ما نقضت عهدها عندما حاصرت الأحزاب المدينة وأخذت تكيد للمسلمين وتستعد للغدر بهم اذا نشب القتال . عند ذلك جاء الى الرسول نعيم بن مسعود مسلما ، وعرض أن يقوم بأى عمل فى جهاد المشركين وصرفهم عن المدينة فقال له عليه السلام : « خذّل عنا فان الحرب خدعة » . فذهب مسعود الى بنى قريظة

وحذرهم ان هزمت قريش نجت بنفسها وتركتهم تحت رحمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم نصحهم بألا يطمئنوا الا اذا أعطوهم رهائن من ساداتهم وأشرافهم ، ثم ذهب الى قريش وغطفان وأوهمهم أن بنى قريظة قد ندموا على نقضهم عهد الرسول واتفقوا معه على أن يخدعوا له قريشا وغطفان عن بعض ساداتهم فيأخذونهم رهائن ويقدمونهم اليه ليضرب أعناقهم . فاستعجلت قريش وعد قريظة لها ونصرتها ، فكان فى جوابهم ما يؤكد عزم بنى قريظة على الغدر بهم .

نجحت اذن مكيدة نعيم بن مسعود وخافت قريش وغطفان من غدر القرظيين وفى تلك الأثناء ثارت الطبيعة فجعلت تكفأ قدور المشركين وخيامهم ، فأرغم كل ذلك المحاصرين على الرحيل .

نصر الله المؤمنين بعد هـذه الأيام الشديدة ، فحلفوا أن لا يدخلوا المدينة الا بعد أن ينتهوا من أمر بنى قريظة فحاصروهم خمسا وعشرين ليلة وعرضوا عليهم الاسلام أو القتال ، ورفض اليهود الاسلام وخافوا من القتال ، ورغبوا فى أن يخرجوا من المدينة كما خرجت بنو قينقاع وبنو النضير ، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم رفض ذلك وأبى الا أن تنزل على الحكم ، ثم ان اليهود لجأوا الى الأوس حلفاءهم القدامى ، فقبل الرسول حكم واحد منهم وهو سعد بن معاذ ، وحكم سعد بأن تقتل المقاتلة وتقسم الأموال وتسبى الذرارى والنساء . ونفذ حكمه .

وهكذا تغير الوضع الاجتماعى داخل المدينة كما تغير الوضع السياسى عما كانت عليه قبل هجرة الرسول اليها ، تحولت من

موضع تنزله مجموعة من القبائل يدب بينها الخلاف الى أمة من المؤمنين تجمعهم رابطة واحدة هى رابطة الدين ، ويهدفون الى غاية واحدة وهى نشر هذا الدين فى ربوع الجزيرة العربية ؛ ونجحت هذه الوحدة السياسية الصغيرة فى طرد مصدر الفتنة فى دولتها الناشئة ، كذلك نجحت فى اخماد فتن المنافقين واستعدت للفتح الأكبر لها وهو فتح مكة .وتم لها ذلك ، بل تم لها اخضاع الجزيرة العربية كلها وهكذا أصبحت عاصمة الدولة الاسلامية الجـــديدة .

وتوفى الرسول عليه السلام بعد أن أدى مهمته ، وبعد أن ترك أصحابه وخلفاءه يديرون شئون هذه الدولة الجديدة .

بهذا استطاعت يثرب أن تنافس مكة فى مركزها الاجتماعى طوال عصر الرسول وأن يحتل أهلوها من الأنصار المنزلة الأولى من قلب النبى صلى الله عليه وسلم ، ولقد كانوا حريصين على هذه المنزلة أن ينالها أى غبن أو اهمال حتى أن نفوسهم تغيرت بعض الشيء ، وساورتهم بعض الشكوك بعد فتح مكة وبعد أن فرق الرسول غنائم هوازن فى المؤلفة قلوبهم من سادات قريش وغيرها من قبائل العرب ، فظنوا أن الرسول صار فى غنى عنهم بعد أن لقى قومه ، فلم يعد يحفل بهم كما كان من قبل ، فلما بلغ الرسول ذلك أمر سعد بن عبادة أن يجمع له الأنصار ، ثم خطب فيهم خطبته الرائعة التى بين للأنصار فيها فى عبارة سلسة آخاذة نعمة الاسلام عليهم اذ هداهم بعد الضلالة وألف بين قلوبهم بعد العداوة ، ثم ذكر لهم بالثناء تصديقهم لرسالته وايواءهم اياه

ومواساتهم له ، ثم عتب عليهم فى كياسة وظرف تطلعهم الى هذا الفىء الذى أفاءه الله عليهم ففرقه فى نفر حديثى الاسلام تطييبا لنفوسهم عما أصابهم من القتل والهزيمة ، معتمدا على حسن اسلام الأنصار وصدق رغبتهم فى نشر الدين واعلاء كلمة الله ، ثم أكد محبته اياهم وايثارهم على غيرهم من العرب ، وأخيرا أعلن اليهم أنه منهم ، ودعا لهم ولأبنائهم وأبناء أبنائهم .

ولقد بكى الأنصار بعد هذه الخطبة وطابت نفوسهم برضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وعدوا ذلك غنما عظيما (١) .

فقد روى الطبرى أنه لما اجتمع الأنصار برسول الله ، حمد الله وأثنى عليه بالذى هو أهله ثم قال : « يا معشر الأنصار ! مقالة بلغتنى عنكم وموجدة وجدتموها فى أنفسكم ، ألم آتكم ضلالا فهداكم الله ؟ وعالة فأغناكم الله ؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ قالوا : بلى ! لله ولرسوله المن والفضل . فقال عليه السلام : ألا تجيبونى يا معشر الأنصار ؟ قالوا : وبماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ولرسوله المن والفضل ! قال عليه السلام : أما والله لو شئتم لقلتم فصدقتم ولصدقتم : أتينا مكذبا فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريدا فآويناك ، وعائلا فآسيناك . وجدتم فى أنفسكم يا معشر الأنصار فى لعاعة (٢) من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ، ووكلتكم الى اسلامكم . أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير وترجعوا برسول الله الى

---

(١) انظر تاريخ الاسلام الياس ١ : ١١٦ .
(٢) نصيب قليل من الدنيا .

رحالكم ؟ فوالذى نفس محمد بيده ، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شعبا وسلك الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار . اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار . فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا : رضينا برسول الله قسما وحظا . ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرقوا .

ذلك هو موقف الأنصار من أنفسهم ومن مدينتهم ، وذلك هو موقف الرسول صلى الله عليه وسلم منهما معا . ولقد أنصفهم الرسول صلى الله عليه وسلم كما أنصف مدينتهم فجعلها عاصمة المسلمين وجعلها مقامه فى حياته ومثواه بعد وفاته صلى الله عليه وسلم .

حققت المدينة اذن تغييرا فى تركيبها الاجتماعى والسياسى فى عصر الرسول كما حققت تغيرا أخطر من هذا كله وهو تغيرها النفسى ، أما التغير الاجتماعى والسياسى فقد عرضناه ويتلخص فى تآلف قلوب الأوس والخزرج وخمود نار الفتنة والحقد فيهم ، ثم فى تطهير المدينة من عنصرى الفتنة فيها وهما المنافقون واليهود ، أما المنافقون فقد انكشف أمرهم وحوربوا بكل الوسائل حتى قضى عليهم ، وأما اليهود فقد طهرت المدينة وما جاورها من القوى منهم وانتهى أمرهم اما بقتلهم أو بنفيهم خارج الجزيرة العربية . وأصبحت المدينة عاصمة المسلمين ومقر الرسالة والنبوة والخلافة فى عصر الخلفاء الثلاثة الأول رضى الله عنهم ، منها كانت توجه الغزوات لمحاربة المشركين ومثيرى الفتنة

والشر ، ومنها تخرج وفود المؤمنين لتعليم القبائل أسس العقيدة الجديدة . وشريعة الاسلام الغراء .

أما التغير النفسى فقد انعكس فى مظاهر حياة المؤمن الأنصارى ثم فى حياة جماعة الأنصار ممثلين لمدينتهم طوال حياة الرسول وبعد وفاته صلى الله عليه وسلم .

ان أبرز مظاهر التحول فى نفسية الأنصارى تتضح فى عناصر ثلاثة ودلالالتها وهى الايمان والاخاء والفداء ، فاننا اذا بحثنا عن هذه العناصر فى الجاهلية لوجدنا اختلافا كبيرا ؛ لم يكن الجاهلى يؤمن عقائديا بشىء ، كانت صلته بالأوثان صلة انتفاع ، فان حقق الوثن له ما يتمناه احترمه واذا لم يحقق سبه وحطمه وقد يبول عليه أو يأكله (١) ، كذلك كان ايمانه بعصبيته ايمان انتفاع ، فلولا هذه العصبية ما أمن على حياته ، وكثيرا ما كانت القبيلة تخلع أحد أفرادها اذا ارتكب ما يهدد أمنها العام ، وعندئذ يهدر دمه فيخرج باحثا عن جوار ، فان لم يجد تصعلك وفقد ايمانه بهذه العصبية . أما الأنصارى — وكل مسلم — فقد أصبح الايمان عنده عقيدة مرتبطة بمثل وقيم جديدة ليس لها هدف نفعى ، ثم هى متصلة بالعقل والقلب ، وهما يتجهان نحو عالم تمتزج فيه عناصره المادية والروحية امتزاجا خاصا لم يكن للعربى به سابق معرفة .

واذا كان لكل ايمان سلوك فى الحياة يشتد الارتباط به كلما

---

(١) كان لاحد الأعراب صنم من تمر فلما جاع اكله !

تعمقت العقيدة فى نفس صاحبها فان سلوك الأنصار أوضح دليل على أن ايمانهم بلغ من نفوسهم أعمق أغوارها ، وفى أقصر زمن ممكن يمكن أن يتم فيه تحول انسان من دين الى دين .

ولم يكن قبول الأنصار لمبدأ الاخاء بأقل خطرا من الايمان دلالة على تغير هذه النفسية من حال الى حال ، لقد كان القانون الجاهلى بين قبائل يثرب هو قانون الصراع والعداوة رغم أنها قبائل من بطون واحدة وأبناء عمومة وخئولة متصلة ، والصراع بين القبائل دائما ما يقوم على اختلاف حول موارد العيش ، وكل قبيلة تحب أن تنافس الأخرى فى هذه الموارد ، وتحتفظ لنفسها بعوامل البقاء ، فاذا حدث أن أفراد قبيلة قبلوا أن يقتسم معهم ثرواتهم ومصادر رزقهم أفراد آخرون ليسوا من قبيلتهم أو متصلين بأنسابهم فلا شك أن هذا دليل على حدوث شىء جديد فى نفسية هؤلاء الناس ، وأن تغيّرا جذريا شمل أعمق تكوينهم النفسى والفكرى معا ، ولا شك أيضا أن أهم ما يدل عليه هذا التغيير هو استعداد هؤلاء الأفراد لأن يتنازلوا عن كثير من مظاهر عصبيتهم الجاهلية ومكاسبهم الفردية ، ثم قبول مبدأ التوحد والتكتل فى سبيل مبادىء ومثل عليا لم يكن لها وجود فى ماضيهم الجاهلى .

وهنا يأتى العنصر الثالث ، فاذا كان الايمان قد وهبهم هذه الروح الجديدة ، واذا كان الاخاء مظهرا من مظاهرها ، فلا شك أن الفداء بهذا المفهوم الذى رأيناه عندهم اكتمال لشخصية المسلم الجديد ، وتتمة للتغيير الذى حدث فى نفسية الجاهلى

القديم . ان هذا العربى الذى يعلم أن بينه وبين الاستشهاد ودخول الجنة هى التمرات التى يأكلها ، فيقذفها من يده لينعم بما هو خير وأبقى فى الجنة — لذى روح جديدة ، وهو يؤكد مدى ما طرأ من تحول على نفسية المسلمين . وان أبا دجانة الذى يأخذ سيف الرسول ليقاتل به فيستوهب منه القوة ، ويستمد منه الجرأة ، ثم يحرص بعد ذلك على أن لا يمس جسد امرأة هو نموذج لما استطاع الدين الجديد أن يقوم به نفوس الجاهليين .

واذا نظرنا بعد ذلك فى نفسية اليثربيين كممثلين لمدينتهم — مدينة الرسول — وما طرأ عليها من تغير فسنجد أن أهم مظهر لها هو هذا المفهوم الجديد الذى تقبلت به معنى الغزو أو الحرب ، لقد أصبح القتال فى سبيل العقيدة وليس فى سبيل أى شىء آخر ، أى تحول هدفه من مكسب مادى الى مكسب روحى ، ومن رغبة فى الحصول على نعيم الدنيا الى رغبة فى نيل رضى الله تعالى وحب الرسول عليه السلام . ولم تكن العرب تألف هذا النوع من القتال ، اذ كان قتالها دفاعا عن عصبية غاضبة ، أو انتهابا لأموال مملوكة ، وبذلك نجحت يثرب — مدينة الرسول — فى تغيير هدف القتال فى الجزيرة العربية حتى نهاية عصر الفتوح الكبرى الذى انتهى بانتشار الاسلام حتى شمالى أفريقيا وشبه جزيرة ايبريا فى الغرب ثم سهول الصين وجزر الهند الشرقية فى الشرق !

كذلك خرج من يثرب أول دعاة حقيقيين للاسلام كتلك

الوفود التى كان يبعث بها الرسول الى القبائل لهديها وتعليمها الكتاب والشريعة ، فمنهم من نجح فى مهمته ، ومنهم من استشهد فى سبيل دعوته ، وما شهداء يوم الرجيع وبئر معونة الا مثل رائع من أمثلة العقيدة الراسخة والتغير الهائل الذى طرأ على نفوس الجاهليين .

والآن كيف عبر الشعر عن كل هذا التغير ؟ هل وقف جامدا عند نغماته الأولى التى كانت تصدح فى كل بقاع الجزيرة أم اتخذ نغمات أخرى تتفق والحياة الجديدة ؟ هل بقيت وظيفته مرتبطة بالعصبية والتمدح ، أم تغيرت الوظيفة لتناسب الأوضاع الاجتماعية والسياسية الطارئة ؟ هل ما زالت النماذج الجاهلية للفتوة هى المثل الأعلى للمسلم كما كانت للجاهلى أم تغيرت هذه النماذج بما يتفق والبعث الجديد ! وأخيرا هل استطاع حسان أن يطور فنه ليعبر عن روح العصر أم وقف جامدا حائرا لا يدرى مصيره فى هذه الحياة الجديدة ؟ ! هذا ما سوف نجيب عليه الآن .

الفصل الثانى

حسان فى عصر الرسول

١ ـ اسلام حسان :

ربما كان أول ما يجب أن نسأل عنه قبل أن نجيب عن الأسئلة السابقة هو متى أسلم حسان ؟ لقد بحثنا عن مصدر فيه نص صريح يجيب عن هذا السؤال فلم نجد ، غير أننا نلاحظ أن بنى النجار — قبيلته — قد ساهمت فى أولى المحادثات قبل العقبتين الأولى والثانية ، كما أن للخزرج — قبيلته الكبرى — نصيبا كبيرا فى اختيار النقباء اذ اختير منهم تسعة نقباء من بين اثنى عشر نقيبا ، وكان بين هؤلاء التسعة ابن خالته المنذر بن عمــرو بن خنيس وصديقه عبد الله بن رواحة ، كما كان أخوه أوس بن ثابت أحد من بايعوا الرسول فى العقبة الثانية . ولما كان حسان رجل القبيلة، لا يخرج على تقاليدها أو أحلافها أو أوامرها ، فلا شك أنه استعد للدخول فى الاسلام منذ أن استعدت قبيلته ، واذا كان الخزرج عامة وبنو النجار خاصة قد حالفوا الرســول وأبدوا استعدادهم للدخول فى دينه والدفاع عنه منذ وقت مبكر وقبل هجرته عليه السلام الى مدينتهم ، فلا شك أن حسان قد فعل مثلهم أيضا ، لأننا لا نجد شاهدا يدل على أنه كان صاحب رأى فيهم أو شخصية لها استقلالها عنهم أو موجهة لجموعهم .

وهنا نأتى الى مبحث آخر وهو : كيف كان اسلام حسان ؟ هل هو اسلام المؤمن الحريص على الدين عقيدة وسلوكا أو هو انتقال الى دين وجد نفسه يعتنقه كما اعتنقته قبيلته لا ارادة له فى ذلك وانما تبعية لا يستطيع أن يخرج عليها والا وجد نفسه غريبا بين قومه وفى مدينته .

لاشك أن أى دارس لا يستطيع أن يتناول شخصية بالبحث والدراسة ويترك فيها شبهة مثل تلك الشبهة التى أثارها القدماء والمحدثون ولم ينتهوا فيها الى رأى ، وخاصة أن شخصية حسان التى تتناولها بالدراسة شخصية احتلت مكانة مرموقة فى تاريخ المسلمين وسجلت احترامها وخلودها فى صفحاته .

ربما كان أخطر ما يمس هذه الشخصية من تلك المسألة هى ما سجلته المصادر من اشتراكه فى حديث الافك [1] وتقوله فيه . فقد حدث أن خرجت السيدة عائشة زوج الرسول عليه السلام فى غزوة بنى المصطلق مع جيش المسلمين ، وأثناء رجوع الجيش تخلفت عنه لقضاء حاجة فتأخرت وسبقها المسلمون الى المدينة ، ثم وجدها صفوان بن المعطل السلمى وكان قد تأخر هو أيضا فأركبها ناقته ودخل المدينة ، فلما رآهما المنافقون تقوّلوا فى ذلك ، وحزن الرسول عليه السلام حزنا شديدا حتى أنزل الله وحيه ببراءة السيدة عائشة وتكذيب المنافقين . « ان الذين جاءوا بالافك عصبة منكم ، لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم ، لكل امرىء منهم

---

(1) انظر تفصيل هذا الخبر فى كتب الحديث وفى سيرة ابن هشام ٣ : ٣٠٨ ــ ٣٢١ وكتب الأخبار مثل الأغانى ٤ : ١٥٤ .

ما اكتسب من الاثم ، والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم »[1]

وتحدثنا كتب الأخبار وكتب التفسير فتكاد تجمع على أن هذه العصبة التى أشار اليها القرآن الكريم تتكون من عبد الله ابن أبى بن سلول ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش وحسان بن ثابت ! وقد زادت بعض هذه الكتب أن الثلاثة الآخرين قد حدهم الرسول صلى الله عليه وسلم ، جاء فى سيرة ابن هشام عن عائشة أنه عندما نزل الوحى الكريم بتبرئتها جاء الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : ابشرى يا عائشة ، فقد أنزل الله براءتك . قالت : قلت : بحمد الله ، ثم خرج الرسول الى الناس فخطبهم ، وتلا عليهم ما أنزل الله عليه من القرآن فى ذلك ، ثم أمر بمسطح بن أثاثة ، وحسان بن ثابت ، وحمنة بنت جحش وكانوا ممن أفصح بالفاحشة فضربوا حدهم [2] .

وجاء فى تفسير [3] آية « ان الذين جاءوا بالافك ... » من سورة النور أن عبد الملك بن مروان كتب الى عروة يسأله عن الذين جاءوا بالافك فأجابه عروة : كتبت الىّ تسألنى فى الذين جاءوا بالافك وهم كما قال الله : ان الذين جاءوا بالافك عصبة منكم .. وانه لم يسم منهم أحد الا حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش وقال ابن عباس : الذين افتروا على عائشة عبد الله بن أبى وهو الذى تولى كبره ، وحسان بن ثابت ومسطح وحمنة بنت جحش .

---

(١) النور ١١ (٢) سيرة ابن هشام ٣ : ٣١٤ — ٣١٥ .
(٣) تفسير الطبرى .

وقد كان للمسلمين موقف من هؤلاء الثلاثة فأما مسطح فقد كان أبو بكر رضى الله عنه ينفق عليه لقرابته وحاجته ، فلما نزلت براءة عائشة قال : والله لا أنفق على مسطح شيئا أبدا ، ولا أنفعه بنفع أبدا بعد الذى قال لعائشة وأدخل علينا . قالت السيدة عائشة رضى الله عنها فأنزل الله فى ذلك « ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم»[1] عند ذلك قال أبو بكر : بلى والله ، انى لأحب أن يغفر الله لى ، فرجع الى مسطح ونفقتـه التى كان ينفق عليه ، وقال : والله لا أنزعها منه أبدا .

وأما حمنة بنت جحش فقد قالت عنها عائشة : « وأما حمنة بنت جحش ، فأشاعت ما أشاعت تضادنى لأختها [2] فشقيت بذلك.

وأما حسان فقد ذهب اليه صفوان بن المعطل واعترضه وضربه بالسيف — وكان حسان قد هجاه — فوثب ثابت بن قيس بن الشماس على صفوان حين ضرب حسان فجمع يديه الى عنقه بحبل ثم انطلق به الى دار بنى الحارث بن الخزرج ، فلقيه عبد الله بن رواحة فقال : ما هذا ؟ قال : أما أعجبك ضرب حسان بالسيف ! والله ما أراه الا قد قتله . قال له عبد الله بن رواحة : هـل علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشىء مما صنعت ؟ قال : لا والله ؛

---

(١) النور ٢٢ .

(٢) أختها زينب بنت جحش زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال : لقد اجترأت ! أطلق الرجل ! فأطلقه . ثم أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكروا ذلك له ، فدعا حسان وصفوان بن المعطل ، فقال ابن المعطل ! يا رسول الله : آذانى وهجانى ، فاحتملنى الغضب فضربته ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحسان : أحسن يا حسان ، أتشوهت على قومى أن هداهم الله للاسلام ! ثم قال : أحسن يا حسان فى الذى أصابك ، قال : هى لك يا رسول الله .

وواضح من هذا أن حسان لم ينل عطف الرسول فى هذا الحادث بل لقد أنبه الرسول عليه السلام قائلا له « أتشوهت على قومى أن هداهم الله للاسلام » والسبب فى ذلك تلك الأبيات التى قالها حسان يعرض فيها بابن المعطل وبمن أسلم من قريش والتى أولها .

أمسى الجلابيب قد عزوا وقد كثروا

وابن الفريعة أمسى بيضة البلد

ولا شك أنه موقف غريب من حسان ان صحت نسبة تلك الأبيات وان كنت لم أجد من يشك فى نسبتها له !

ولا شك أن مثل هذا الخبر لا يمر بسهولة عند كبار المحدثين دون أن يبدوا فيه رأيهم ، لأنه يدور حول شخصيتين اسلاميتين كبيرتين أولاهما زوج الرسول صلى الله عليه وسلم وأحب نسائه اليه ، وآخرهما شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم والمنافح عنه ضد شعراء المشركين .

ولقد روى المحدث الأندلسى ابن عبد البر أن قوما ذكروا أن

حسان كان ممن خاض فى الافك على عائشة رضى الله عنها وأنه جلد فى ذلك ، ثم ان قوما آخرين أنكروا أن يكون حسان قد خاض فى الأفك أو جلد فيه .

وقد روى ابن عبد البر خبرا عن عائشة رحمها الله تبرىء حسان من هذه التهمة . فقد ذكر الزبير بن بكار قال حدثنى ابراهيم ابن المنذر عن هشام بن سليمان عن ابن جريج عن محمد بن السائب ابن بركة عن أمه أنها كانت مع عائشة فى الطواف ومعها أم حكيم بنت خالد بن العاصى وأم حكيم بنت عبد الله بن أبى ربيعة فتذاكرتا حسان بن ثابت بالسب ، فقالت عائشة : ابن الفريعة تسبان ؟ انى لأرجو أن يدخله الله الجنة بذبه عن النبى صلى الله عليه وسلم بلسانه . أليس القائل :

هجوت محمدا فأجبت عنه   وعند الله فى ذاك الجزاء
فان أبى ووالده وعرضى   لعرض محمد منكم وقاء

فبرأته من أن يكون افترى عليه ، فقالتا : أليس ممن لعنه الله فى الدنيا والآخرة بما قال فيك ؟ فقالت : لم يقل شيئا ولكنه الذى يقول :

حصان رزان ما تزن بريبة
وتصبح غرثى فى لحوم الغوافل
فان كان ما قد قيل عنى قلته
فلا رفعت سوطى الىّ أناملى

وهذان البيتان الأخيران ضمن أبيات قالها حسان فى مدح السيدة عائشة نفى فيهما ما نسب اليها من تهمة ، كما نفى ما نسب

اليه من تقوّل فيها وواضح من الخبر أن الأنصار بل سكان مدينة الرسول كلهم يشيرون باصبع الاتهام الى حسان ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم والسيدة عائشة رضى الله عنها يحاولان ابعاد الشبهة عنه لمكانته فى نفسيهما ، ولذبه عن الاسلام والمسلمين فى شعره . نشعر بذلك خاصة فى ذلك الخبر الذى رواه الطبرى عن عائشة رضى الله عنها فى تفسيره أنها قالت ما سمعت بشىء أحسن من شعر حسان ، وما تمثلت به إلا رجوت له الجنة . قوله لأبى سفيان .

هجوت محمدا فأجبت عنه
وعند الله فى ذاك الجزاء
فان أبى ووالده وعرضى
لعرض محمد منكم وقاء
أتشتمه ولست له بكفء
فشركما لخيركما الفداء
لسانى صارم لا عيب فيه
وبحرى ما تكدره الدلاء

فقيل : يا أم المؤمنين ، أليس هذا لغوا . قالت : لا انما اللغو ما قيل عند النساء . قيل : أليس الله يقول « والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم »(١) قالت أليس قد أصابه عذاب عظيم ، أليس قد ذهب بصره وكنع بالسيف (٢) ! ؟

(١) أى الذى أشاع افتراء الافك وأكثر من ترديده .

(٢) كان حسان قد ذهب بصره فى أواخر حياته كما سيأتى فيما بعد ، وأما كنعه بالسيف فذلك عندما ضربه صفوان بن المعطل .

هذا هو حديث الافك وموقف حسان منه ، ثم موقف الرسول صلى الله عليه وسلم وعائشة رضى الله عنها والمسلمين جميعا من حسان فى مسألة خوضه فى هذا الحديث ، ولقد حاول حسان أن ينفى فى شعره أنه خاض فى هذا الحديث ، وذكر أن كل ما نسب اليه فيه انما هو محض افتراء عليه ، واشاعة ليس لها أى ظل من الحقيقة . يقول فى مدحه لعائشة رضى الله عنها :

مهذبة قد طيب الله خيمها
وطهرها من كل سوء وباطل

فان كنت قد قلت الذى قد زعمتم
فلا رفعت سوطى الىّ أناملى

وكيف ودى ما حييت ونصرتى
لآل رسول الله زين المحافل

له رتب عال على الناس كلهم
تقاصر عنه سورة المتطاول

فان الذى قد قيل ليس بلائط
ولكنه قول امرىء بى ما حل

ولكن هل اقتصرت أدلة الباحثين فى دراسة صدق تدين حسان عند هذا الدليل فحسب ، انهم يجدون حسان يدافع عن جبلة ابن الأيهم أمام عمر بن الخطاب رضى الله عنه عندما ارتد جبلة عن الاسلام متنصرا وسافر الى الشام ، كذلك يجدون فى شعره الاسلامى بقايا عصبية قبلية ، وعنجهية جاهلية لم يتغلب عليها الاسلام بعد ، فكثيرا ما كان يمدح الرسول بلسان الأنصار

أو الخزرج بصفة خاصة ، ويفخر بما أدوه للاسلام والمسلمين وكأنه يفخر ويمن على قبيلة نزلت فى جوارهم وليس على اخوة لهم فى الدين . يقول :

كنا ملوك النـــاس قبل محمـــد
فلما أتى الاســلام كان لنا الفضل

ويقول :

ألا أيها الساعى ليـدرك مجـدنا
تأتك العــلا فاربع عليـك بسـائل
فهل يستوى ماءان أخضـر آجن
وحسى ظنـون ماؤه غـير فاضل

الى أن يقول :

ونحن سبقنا النـاس مجدا وسؤددا
تليـد وذكرا نامياً غـير خامـل
لنا جبـل يعـلو الجبـال مشرف
فنحن بأعلى فرعـه المتطـاول
مساميح بالمعروف وسـط رحالنـا
وشباننا بالفحش أبخـل باخـل
ومن خـير حى يعلمون لسـائل
غيـاثا وعـان موثق فى السـلاسل
ومن خـير حى يعلمون لجـارهم
اذا اختارهم فى الأمن أو فى الزلازل

وتشتد لهجة الفخر بالأنصار والخزرج خاصة ، بل انها تنقلب

الى عتاب للرسول يوم فتح مكة عندما جعل الرسول صلى الله عليه وسلم على مقدمة الجيش قبيلة سليم بقيادة خالد بن الوليد ، وكأن الأنصار يريدون أن يكونوا هم أول من يدخل مكة امعانا فى اذلال قريش التى حاربتهم ، وأسقطت كثيرا من أبنائهم شهداء فى ميدان القتال . يقول :

دع عنك شـعثاء اذ كانت مودتها
نزرا وشر وصال الواصـل النزر
وأت الرسول فقـل يا خير مؤتمن
للمؤمنين اذا ما عـدل البشـر
عـلام تدعى سليم وهى نازحـة
أمام قـوم هـم آووا وهم نصروا
سـماهم الله أنصـارا لنصـرهم
دين الهـدى وعوان الحرب تستعر
وجاهـدوا فى سـبيل الله واعترفوا
للنائبات فما خـامو وما ضـجروا
والنـاس ألب علينا ثم ليس لنـا
الا السيوف وأطراف القنـا وزر
نجالد النـاس لا نبقى على أحـد
ولىّ وتتبع ما توحى به السـور
ولا يهـر جناب الحرب مجلسـنا
ونحن حين تلظى نارهـا سـعر

وكم رددنا ببـدر دون ما طلبـوا
أهل النفـاق وفينا أنزل الظفـر
ونحن جندك يوم النعف من أحـد
اذ حزبت بطـرا أشـياعها مضر
فما ونينا وما خمنـا ومـا خـبروا
منا عثارا وجـل القـوم قد عثروا

فهذا نوع من العتاب والمن ، كان أجدر بحسان أن لا يخوض فيه ، ولكن يظهر أن تهور حسان الذى عرفناه له فى جاهليته ، قد أظهر أثره فى اسلامه ، لأن رجلا يتقول على زوج الرسول بأخبث ما يشين امرأة ، ويأسف على أيام الجاهلية فى شـعره ، ويذكر الرسول بما أداه الأنصار وخاصة الخزرج له وللمسلمين ؛ ثم يدافع عن ارتداد صديقه جبلة بن الأيهم وتحوله الى المسيحية ثم يشارك — كما سنرى فيما بعد — فى فتنة عثمـان — وكان يمكنه أن يعتزل الأحداث وخاصة لكبر سنه فقد كان قد بلغ المائة — كل ذلك يلجىء الباحثين الى القول بأنه ربما كان رقيق الاسلام .

ويقف باحثون آخرون يردون على الأدلة السابقة فيقولون أما حديث الافك فليس من المقطوع به أن حسان قد شارك فيه فكما يقول ابن عبد البر « قال قوم وأنكر آخرون » وتأتى شـهادة للسيدة عائشة فى صفه عندما نفت أنه تقول فيها بشىء ، أما اذا كان قد قال شيئا لغضبه مما ظن أنه قد وقع ، فقد غضب كما غضب كل المسلمين حتى أن على بن أبى طالب رضى الله عنه نصح الرسول بأن يطلق السيدة عائشة ويتزوج غيرها وكان ذلك قبل تبرئة الله

عز وجل لزوج الرسول ، وعلى هذا فلا يطعن مشاركته فى الخوض فى هذا الحديث فى صدق ايمانه وتمسكه بدينه . وأما ذكره لأيام الجاهلية فقد كان وسيلة للفخر على شعراء المشركين وكما سنرى فيما بعد أن منهج حسان فى معارضة شعراء المشركين ومناقضتهم أنه كان يرد عليهم بمثل موضوعاتهم التى كانت تعتمد على الفخر بالأنساب والأيام والأمجاد الجاهلية على عكس عبد الله بن رواحة الذى كان يرد عليهم بما أنعم الله على المسلمين من فضائل ومثل . ولم يكن عتاب حسان للرسول أنه قدم بنى سليم على الأنصار فى فتح مكة الا تعبيرا عن رأى بعض جماعة الأنصار ، ولم يكن هذا الرأى ليمس الرسول أو الدين فى شىء ، لأنهم يقصدون أن يكون لهم الفضل فى الفتح والرغبة فى الاستشهاد ، ولأنه لم يكن يتوقع أحد أن يتم فتح مكة دون قتال . هذا الى جانب أن مخاطبة حسان للرسول على هذه الصورة دليل واضح على حرية الرأى التى كان يتمتع بها المسلمون فى ظل هذا الدين الجديد ، وأن مناقشة الرسول فى تدبيره لشئون المسلمين لم تكن محرمة ، فالرسول ليس دكتاتورا يفرض ما يريد ، بل لقد كان يستشير كبار الصحابة فى كل ما يمس شئون المسلمين وأحيانا ما نزل الوحى مؤيدا لمشورة المسلمين ومعارضا رأى الرسول .

أما ما جاء من دفاع حسان عن ارتداد جبلة ، فلم يكن يهدف الى تأييده فى ارتداده وموافقته على تحوله الى النصرانية والا لكان شأنه مع عمر بن الخطاب أخطر من ضربة من درته ، ولكنه تعبير عن احساس بوفاء لهذا الرجل الذى منحه العطايا الكثيرة فى

الجاهلية واستمر فى منحها له فى الاسلام . ويجب أن تتصور جيدا أنه ليس من السهل على رجل عاش نصف عمره فى الجاهلية أن يقتنع لاشعوريا بأن من حق بدوى فقير أن يصفع أميرا خطيرا كجبلة لأن الأخير داس دون قصد منه على ازاره مهما حاول أن يقتنع شعوريا بأن لا فرق بين فقير وأمير كما يقول الاسلام ، فان الاحساس بالفارق الطبقى كان ما يزال يجد صداه فى نفسية بعض المسلمين .

مهما يكن من شيء فان الرسول عليه السلام وضع حسان فى منزلة كبيرة من نفسه ، كما وضعت قصائد حسان فى الرسول صاحبها فى منزلة كبيرة من نفوس المسلمين . فعن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عن حسان: لا يحبه الا مؤمن ولا يبغضه الا منافق . وروى أبو الفرج الأصفهانى وغيره : لما كان عام الأحزاب ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا . قال الرسول صلى الله عليه وسلم : من يحمى أعراض المسلمين : فقال كعب بن مالك أنا يا رسول الله ! وقال كعب بن رواحة : أنا يا رسول الله ! وقال حسان بن ثابت : أنا يا رسول الله ! فقال عليه السلام : نعم اهجهم أنت (يعنى حسان) فانه سيعينك روح القدس . وروى أيضا : بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أمرت عبد الله بن رواحة فقال وأحسن ، وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن ، وأمرت حسان فشفى واشتفى .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يحب أن يستمع الى شعر

حسان ، فقد سأل عنه فى سفر قائلا : أين حسان بن ثابت ؟ فقال حسان : لبيك يا رسول الله وسعديك ! قال عليه السلام : « أحْدُ » فجعل حسان ينشد والنبى صلى الله عليه وسلم يصغى ويستمع ، فما زال يستمع اليه وهو سائق راحلته فلما فرغ من انشاده قال النبى صلى الله عليه وسلم « لهذا أشد عليهم من وقع النبل » يعنى بذلك المشركين .

واستمر تقدير المسلمين لشعر حسان بعد وفاة الرسول ، فعن سعيد بن جبير قال : جاء رجل الى ابن عباس فقال : قد جاء اللعين حسان من الشام . فقال ابن عباس : ما هو بلعين ، لقد جاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بلسانه ونفسه .

ومر الزبير بن العوام بمجلس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وحسان ينشدهم من شعره وهم غير نشاط لما يسمعون منه ، فجلس معهم الزبير فقال : مالى أراكم غير آذنين لما تسمعون من شعر ابن الفريعة ، فلقد كان يعرض الرسول صلى الله عليه وسلم فيحسن استماعه ويجزل عليه ثوابه ولا يشتغل عنه بشىء . فقال حسان يمدح الزبير :

أقام على عهد النبى وهديه
جواريه والقول بالفعل يعدل (1)

وكان حسان يشعر بقدره هذا وبمكانته عند الرسول والمسلمين فقد حدث أن مر عمر بن الخطاب بحسان بن ثابت وهو ينشد الشعر

(1) سبق أن شككنا فى صحة نسبة هذه الأبيات لحسان فى التمهيد . ولكن لا شك أن الخبر يدل على اعزاز المسلمين لحسان .

فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذ بأذنه وقال له : أرغاء كرغاء البعير ! فقال حسان : دعنا منك يا عمر ، فوالله لتعلم أنى كنت أنشد فى هذا المسجد من هو خير منك فلا يغير علىّ . فتركه عمر وانطلق !

لقد اعتمد رسول الله صلى الله عليه وسلم على حسان فى الرد على شعراء المشركين آمثال عبد الله بن الزبعرى وآبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وضرار بن الخطاب وعمرو بن العاص ، وقد استطاع حسان أن يكون ندا لهم ، وأن يتفوق عليهم . روى أنه قيل لعلى بن أبى طالب : أهج عنا القوم الذين هجونا ، فقال علىّ : ان أذن لى رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلت . فقال رجل: يا رسول الله : ايذن لعلى كى يهجو عنا هؤلاء القوم الذين هجونا. فقال عليه السلام : ليس هناك أو ليس عنده ذلك . ثم قال للأنصار: ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم ؟ وكان الأنصار فى أول الأمر يخشون أن يهجوا مشركى مكة من قريش لأنهم أقرباء الرسول ومن قبيلته عليه السلام . فلما أذن لهم الرسول بأن يهجوهم قال حسان بن ثابت : أنا لها . وأخذ يطرف لسانه ويقول : والله ما يسرنى به مقول بين بصرى وصنعاء . فقال له الرسول : كيف تهجوهم وأنا منهم ؟ قال : انى أسلك كما تسل الشعرة من العجين . قال الرواة : فكان يهجوهم ثلاثة من الأنصار : حسان ابن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ، فكان حسان وكعب يعارضانهم بمثل الوقائع والأيام والمآثر ويعيرانهم بالمثالب.

وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر . فكان هجاء حسان وكعب لقريش قبل اسلامهم من أشد القول عليهم ، وأهونه عليهم هجاء عبد الله بن رواحة ، فلما أسلموا وفقهوا الاسلام كان أشد القول عليهم هجاء ابن رواحة .

ويظهر أن اعتلاء حسان منصب شاعر الرسول الرسمى جعلهم يصنعون له منبرا خاصا فى مؤخرة المسجد ليقف فوقه ينشد شعره الذى ينافح به عن الرسول والمسلمين . وقد اعتلاه حسان فى يوم انتصاره الفنى العظيم على شعراء وخطباء بنى تميم فى وفودهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا سبعين أو ثمانين رجلا فيهم الأقرع بن حابس والزبرقان بن بدر وعطارد بن حاجب وقيس ابن عاصم وعمرو بن الأهتم ومعهم عيينة بن حصن وذلك ليناصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين. فوقف ثابت بن قيس بن شماس لعطارد بن حاجب ، ووقف حسان ابن ثابت للزبرقان بن بدر فقال عينيته المعروفة :

ان الذوائب من فهر واخوتهم
قد بينوا سنة للناس تتبع

ووقف أيضا لعطارد بن الحاجب وأنشد ميميته :

منعنا رسول الله من غضب له
على أنف راض من معد وراغم
هل المجد الا السؤدد العود والندى
وجاه الملوك واحتمال العظائم

فقال الأقرع بن حابس : والله ان هذا الرجل لمؤتى له ! والله

لشاعره أشعر من شـاعرنا ، ولخطيبه أخطب من خطيبنـا ، ولأصواتهم أرفع من أصواتنا . ثم قال : أعطني يا محمد ! فأعطاه عليه السلام . فقال : زدني ! فزاده . فقال : اللهم انه سيد الناس. ثم أسلم الوفد .

ويستطيع من يستعرض الديوان ومخطوطاته أن يلمح الجهد الذى بذله حسان فى الدفاع بشعره عن المسلمين ، فقد هجا ابن الزبعرى وسفيان بن الحارث وأبا جهل بن هشام ، والحارث بن هشام ، والوليد ابن المغيرة ، وعتبة بن أبى وقاص ، وعمرو بن العاص ، ومسافع بن عياض ، وأبا البخترى ، وأمية بن خلف وصفوان بن أمية ، كما هجا كعب بن الأشرف ، وهجا هذيلا يوم الرجيع ، وبنى سليم فى الردة ، كذلك هجا اليهود من بنى قريظة وبنى النضير ، ثم مدح الرسول صلى الله عليه وسـلم وافتخر بانتصارات المسلمين فى غزواتهم ، ورثى الرسول عليه السلام وسعد بن معاذ وشهداء بئر معونة والرجيع وسليط بن قيس البخارى وحمزة وجعفر وخبيبا وزيد بن حارثة ومطعم بن عـدى .

وهكذا كان حسان لسان حال المسلمين ، ومصور أفراحهم وأحزانهم ونستطيع أن نوضح ذلك اذا سرنا مع شعر حسان ومع تطور الأحداث فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم .

وأحب قبل أن أستعرض اشتراك حسان فى هذه الأحداث بشعره أن ألفت النظر الى أن بعض الأحداث التى وقعت قبل الهجرة وقبل اسلام أهل يثرب قد ذكرها حسان فى شعره بعـد

الهجرة . وقد روى هذا الشعر بعض الاخباريين أثناء ذكرهم لتلك الأحداث مما قد يوهم أنها نظمت وقت وقوع الحدث وهذا غير صحيح لأن حسان فى هذا الوقت لم يكن قد أسلم بعد . مثال ذلك مدح حسان أهشام بن عمرو فى نقضه للصحيفة التى كان قد تعاهد فيها المشركون من أهل مكة على مقاطعة الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين وحصارهم . وقد استمرت هذه المقاطعة ثلاث سنوات احتمى فيها الرسول وأصحابه فى شعب من شعاب الجبل خارج مكة يعانون من الحرمان ألوانا ، ولم يكن يتاح لهم الاختلاط بالناس والتحدث اليهم الا فى الأشهر الحرم . عندئذ قام عمرو بن هشام وبعض صحبه كزهير بن أمية والمطعم بن عدى وأبى البخترى بن هشام وزمعة بن الأسود بنقض هذه الصحيفة وبذلك أتيح للرسول وأصحابه أن يعودوا من الشعب الى مكة وأن يبيعوا قريشا ويبتاعوا منها . يقول حسان فى مدح هشام ابن عمرو :

هل يوفين بنو أمية ذمة
عقدا كما أوفى جوار هشام

من معشر لا يغدرون بجارهم
للحارث بن حبيب بن سخام

واذا بنو حسل أجاروا ذمة
أوفوا وأدوا جارهم بسلام

ولهذا السبب أيضا ميرثى حسان فيما بعد المطعم بن عدى حين مات بأبياته التى أولها :

أيا عين فابكى سيد القوم واسفحى
بدمع ، وان أنزفته فاسكبى الدما

ومن هذه القصيدة قوله :

فلو كان مجد يخلد الدهر واحدا
من الناس أبقى مجده اليوم مطعما
أجرت رسول الله منهم فأصبحوا
عبيدك ما لبى مهل وأحرما
فلو سئلت عنه معد بأسرها
وقحطان أو باقى بقية جرهما
لقالوا هو الموفى بخفرة جاره
وذمته يوما اذا ما تذمما

ب - حسان والأحداث :

١ — قبل الهجرة : ليس بين أيدينا نصوص تصور حياة حسان منذ بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم حتى هجرته الى يثرب واذا كنا قد أشرنا الى احتمال دخول حسان فى الاسلام بعد بيعتى العقبة فالذى لا شك فيه أن حسان استقبل الرسول فى يثرب مسلما كمعظم سكان هذه المدينة .

ومما يؤكد ظنى الذى ذكرته آنفا وهو أن حسان أسلم قبيل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم رواية عن ابن اسحق — ان كان قد صدق فيها — يقول فيها : وكان أول شعر قيل فى الهجرة بيتين قالهما ضرار بن الخطاب بن مرداس :

تداركت سـعدا عنـوة فأخـذته
وكان شـفاء لو تداركت منـذرا
ولو نلتـه ظلت هنـاك جـراحه
وكان حريا أن يهـان ويهـدرا

فقال حسان يجيبه بأبياته التى أولها :

لست الى عمـرو ولا المرء منـذر
اذا ما مطايا القـوم أصبحن ضمرا

وكان خبر هذه الأبيات أن قريشا طلبت الأوس والخزرج بعد بيعة العقبة وتنصيب النقباء الاثنى عشر وقد استطاعت أن تأسر سعد بن عبادة والمنـذر بن عمرو ، وكلاهما كان نقيبا ، غير أن المنذر استطاع أن يفلت منهم وبقى سعد بن عبادة مأسورا حتى تخلصه جبير بن مطعم بن عدى والحارث بن حرب بن أمية ، وكان بينهما وبين سعد بن عباده جوار . وتعلق أقدم مخطوطة لديوان حسان قائلة ان أبيات حسان هذه هى أول شعر قاله فى الاسلام . وبهذه الأبيات يكون حسان قد بدأ يوجه طاقاته الفنية وعصبيته القبلية والفنية نحو هذا الصراع الجديد الذى بدأ يبزغ فى الأفق وهو صراع المدينتين العتيقتين مكة ويثرب ، وصراع العقيدتين الأزليتين : الوثنية والتوحيد .

وتدور المعانى فى أبيات حسان حول القيم الجاهليـة فهو ما زال ينظر الى أسر سعد بن عبادة ومحاولة أسر المنذر بن عمرو نظرته الى الشقاق القبلى ، ثم يخرج من هذا الى تهديد الشاعر بأنه بهجائه لسعد والمنذر وقومهما كمن يحفر لنفسه قبره :

فلا تك كالثكلى وكانت بمعـــزل
عن الثكل لو كان الفـؤاد تفكرا
ولا تك كالشاة التى كان حتفهـا
بحفر ذراعيها فـلم ترض محفـرا

جـ ـ حسان والغزوات :

ليس من غزوة من غزوات الرسول صلى الله عليه وسـلم الا ونجد فيها لحسان شعرا رغم أنه لم يشترك فى أى منها اشتراكا فعليا وذلك اما فى هجاء المشركين أو مناقضتهم والرد عليهم أو فى هجاء المنافقين وكشف أمرهم ، وهتك حجبهم ، أو مهاجمة اليهود وفضح ما يكنون من حقد للرسول وللمسلمين ، وما يثيرون من فتن وما يدبرون من مكائد ، واما فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وكبار صحابته والمسلمين ووصـف بطولاتهم وتمجيـد جهادهم والفخر بانتصاراتهم ثم رثاء شهدائهم رضى الله عنهـم أجمعين . ولم يترك حسان حادثة الا وسجلها فى شعره أو موقفا الا وعبر فيه عن رأى الرسول والمسلمين ، لذلك كثر استشهاد كتاب سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم بشعره حتى أننا يمكننا أن نقول فى شىء من التعميم ان شعر حسان يؤرخ لحياة الرسول والمسلمين من بعد الهجرة حتى وفاته صلى الله عليه وسلم .

ولقد كانت هذه الظاهرة أحد الأسباب التى جعلت الرواة يضيفون الى حسان كثيرا مما لم ينظمه لمجرد أن شعره الحقيقى يصور أحداث السيرة ويشارك فى التعبير عن عواطف المسلمين .

ولم يكن حسان وحده الذى يفعل ذلك وانما شاركه شاعران

آخران هما كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ، غير أن حسان فاقهما فى كثرة نظم ، وكثرة ما أجاد أيضا حتى علت منزلتـه ، واحتل من قلب الرسول المكانة الأولى بين الشعراء .

ويستطيع من يقلب صفحات السيرة أن يدرك حقيقة ما نقول، فيقف عند كل غزوة من غزوات الرسول صلى الله عليـه وسلم ليستوثق مما نصف وليجد أن حسان قد غطى كل أحداث عصر الرسول بشعره فها هو يمدح الرسول ويصف انتصار المسلمين فى بدر ، ويسجل مقتل مشركى قريش وطرح جثثهم فى بئر القليب:

فلاقينـاهم منـا بجمـع
كأسد الغـاب مردان وشيب

أمـام محمـد قـد وازروه
على الأعـداء فى لفح الحـروب

بأيديهم صـوارم مرهفـات
وكل مجـرب خاظى الكعوب [1]

بنو الأوس الغطارف وازرتهـا
بنو النجـار فى الدين الصليب [2]

فغـادرنا أبا جهـل صريعـا
وعتبـة قد تركنا بالجبـوب [3]

---

(١) كل مجرب أى كل رمح تمرس بالحروب وخاظى الكعوب اى أن كعوبه غليظة صلبة .
(٢) صليب : متين .
(٣) الجبوب : الأرض الغليظة .

وشـــيبة قد تركنا فى رجـــال
ذوى حسب اذا نســـبوا حسيب
يناديهم رســـول الله لمـــا
قذفناهــــم كباكب فى القليب [1]
الـم تجـدوا كلامى كان حقـــا
وأمـر الله يأخـــذ بالقـــلوب
فما نطقـوا ، ولو نطقوا لقـــالوا
صـــدقت ، وكنت ذا رأى مصيب

وذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم وقف عند القليب بعد أن طرح المشركون فيه فقال : يا أهل القليب ، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا ؟ فانى قد وجدت ما وعدنى ربى حقا . فقال أصحابه عليه السلام : يا رسول الله : أتكلم قوما موتى ! فقال لهم : لقد علموا أن ما وعدهم ربهم حق ! صدق عليه السلام !

وفى بدر أيضا نظم حسان مناقضات يرد بها عـلى شعراء المشركين كما فعل فى رده على ابن الزبعرى أو الأعشى بن زرارة التيمى حليف بنى نوفل بن عبد مناف ، فقد كان كلاهما يبكى قتلى بدر ، ويتحسر على مقتل كبار رجالات قريش ومن هـذه المناقضات والقصائد :

ابك بكت عينـــاك ثم تبـادرت
بدم تعـــل غروبهـا ســـجام

---

(١) كباكب : جمع كبكبة وهى الجماعة من الناس ، والقليب هو قليب بدر الذى قذف فيه من مثل من المشركين .

ومنها :

تبلت فؤادك فى المنـــام خـريدة
تسـقى الضـجيع ببارد بســام

ومنها :

لقـــــد علمت قريش يوم بــدر
غداة الأسر والقتـــل الشــديد

ومنها :

يا حــار قد عولت غـــير معــول
عند الهياج وســاعة الأحســاب (١)

ومنها :

مستشعرى حــلق الماذى يقــدمهم
جلد النحيزة ماض غــير رعديد (٢)

ومنها :

خابت بنو أســـــد وآب عزيزهم
يوم القليب بســـوءة وفضـــوح

ومنها :

ألا ليت شــعرى هــل أتى أهل مكة
ابارتنــا الكفار فى ســاعة العسر

---

(١) حار : ترخيم حارث .
(٢) استشعر الثوب : اذا لبس على الجسم دون حاجز .
الماذية : الدروع البيضاء . النحيزة : الطبيعة . وجلدها : قويها .
ويقصد بذلك الرسول صلى الله عليه وسلم .

ومنها :

تجى حكيما يوم بـدر شـــــده
كنجاء مهر من بنـــــات الأعوج

ومنها :

فما نخشى بحـــول الله قـــوما
وان كثروا وأجمعت الزحـــوف

ومنها :

جمحت بنو جمح لشــقوة جدهــم
ان الذليـــل موكل بذليـــــل

وكل هذه القصائد والمناقضات تســجل أخبــار الغزوة ومن قتــل فيها ، كما تعــبر عن عواطف كل من الفئتين المســلمين والمشركين وان كانت قصائد المسلمين وحسان خاصة تســجل الانتصار وتفتخر به ، وتمدح الرسول صلى الله عليه وسلم وتؤيد رسالته .

وفى أحد يؤدى حسان دوره كما أداه فى بدر فهو يرد على المشركين الذين أخذتهم الحمية فى هذه الغزوة بعد أن كتب لهم فيها النصر ، وكانت مهمة حسان أشق من مهمته فى بدر لهــذا السبب ولأنه يريد أن يقلل من نشوتهم بالنصر ، وأن يؤكد الغلبة للمسلمين ، فهو يرد على سفيان بن حرب افتخاره بأبياته التى أولهــا :

ذكرت القروم الصيد من آل هاشم
ولست لزور قلتـــه بمصيب (١)

كذلك يعيّر قريشا بأن أعطت لواءها لعبـد حبشى يسمى صؤاب وهو فى كل ذلك يسجل المعركة بتفاصيلها وبقتـلاها وشـهدائها :

فخـرتم باللـــواء وشر فخـــر
لـــواء حـين رد الى صـــؤاب
جعلتم فخـركم فيه بعبــــد
وألأم من يطـــا عفــــر التراب

والواضح أن وصف حسان للمعركة — كما يظهر فى شعره— وصف شاعر قد حضر القتال وشاهد بنفسه كل تفاصيله ، وليس وصف انسان أخبر ولم يره ، وهذا يدل على أن حسان كان يحضر الغزوات وان لم يشترك فيها بسيفه ، ويظهر أنه كان ينتظر مع النساء نظرا لكبر سنه ولعجزه عن القتال بسبب اصابته فى أكحله، فها هو يهجو عتبة بن أبى وقاص لأنه رمى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أحد فكسر رباعيته اليمنى السفلى وجرح شفته السفلى صلى الله عليه وسلم ، ويسجل فى هجائه هذه الحادثة كأنه رآها فيقـول :

فأخـــزاك ربى يا عتيب بن مـــالك
ولقـــاك قبل الموت احدى الصواعق

---

(١) القرم . السـيد .

بســطت يمينــا للنبى تعمــدا
فأدميت فـاه ، قطعت بالبــوارق

وتتكرر الصورة فحسان يرد على المشركين ويمدح الرسول ويفخر بالمسلمين ، ويؤدى دوره فى كل ذلك خير أداء فهو مراسل حربى يسجل الأخبار وهو صحيفة يومية ينشر هــذه الأخبار ويلونها بما يتفق وهدف المسلمين .

ونجح حسان فى كل ذلك ، فشعره الذى يسجل به غزوات الرسول — تصويره لما حدث يوم الرجيع ويوم بئر معونة ورثاؤه تاريخ هذه الغزوات ويفسر هذه الأحداث ويصــور موقف المسلمين والمشركين منها دون اغفال لأية تفصيلات ، وهو حين يروى أخبار هذه الأحداث فى شعره ، فانما يعبر فيها ومن خلالها عن وجهة نظر الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين . ويسجل لنا بطريقة غير مباشرة موقف المشركين وقريش خاصة من الدعوة الاسلامية وصاحبها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومثال واضح لكل هذا — الى جانب تسجيله لكل غزوات الرسول — تصــويره لما حدث يوم الرجيع ويوم بئر معونة ورثاؤه لشهداء المسلمين فيهما ، وتحريضه بنى أبى براء الذى كان قد وعد باجازة وفد شهداء بئر معونة على عامر بن الطفيل . ففى هــذه الأبيات يحمس أبناء أبى براء على الانتقام من عامر بن الطفيل ويسجل ما حدث فى هذا اليوم يقول :

بنى أم المؤمنين ألــم يرعكــم
وأنتم من ذوائب أهــل نجــد

تهكــم عامـــــر بأبى براء
ليخفــره وما خطــأ بعمـــــد

ألا أبلغ ربيعــــة ذا المســـاعى
فما أحــدثت فى الحــدثان بعــدى

أبوك أبو الحـــــروب أبو براء
وخــالك ماجــد حكم بن ســـعد

وكما نجح حسان فى تسجيل أخبار غزوات الرسول للمسلمين، كذلك نجح فى تسجيل الأحداث المثيرة التى وقعت فى المدينة ضد المسلمين بسبب المنافقين واليهود ، فها هو يسجل مقتل كعب بن الأشرف وسلام بن أبى الحقيق وذلك عندما يقول :

لله در عصـــــابة لاقيتهـــــم
يا ابن الحقيق وأنت يا ابن الأشرف

يسرون بالبيض الخفـــاف اليكم
مرحا كأســد فى عرين معزف (١)

حتى أتوكــم فى محـــل بلادكــم
فسقوكم حتفـــــا ببيض قرقف

مستنصرين لنصـــــر دين نبيهـم
مستصغرين لكل أمـــــر مجحف

---

(١) معزف : العزيف : الأكمة .

ثم يسجل موقف سعد بن معاذ من يهود بنى قريظة وحكمه فيهم فى قصائد عدة منها :

لقـــد سجمت من دمع عينى عبرة
وحق لعينى أن تفيض على ســـعد

ومنها :

ألا يا لقومى هـــل لما حم دافـــع
وهل ما مضى من صالح العيش راجع

ويسجل ما أوقعه المسلمون ببنى قريظة بعد غزوة الخندق فى قصائد منها :

لقـــد لقيت قريظـــة ما سآها
وما وجـــدت لـــذل من نصـــير

ومنها :

لقـــد لقيت قريظـــة ما سآها
وحـــل بحصـنها ذل ذليـــل

ومنها :

تفـــاقد معشر نصروا قريشـــا
وليس لهـــم ببلدتهـــم نصـــير

ثم يأتى بعد ذلك الحدث الأكبر وهو الذى اســتعد له كل شعراء المسلمين حتى لا تفوتهم فرصة المشاركة فيه وأعنى به فتح مكة .

ولقد شارك حسان بشعره منذ أول هذه الغزوة والاستعداد لها فقد أخذ يحرض الأنصار على الفتح ويذكرهم بما فعلت بهم قريش

عنانى ولم أشـــهد ببطحـاء مكة
رجـــال بنى كعب تحـز رقابهـا
بأيدى رجال لـم يسلوا سـيوفهم
وقتــلى كثير لـم تجن ثيــابها
ألا ليت شعرى هـل تنالن نصرتى
سهيل بن عمرو وخزها وعقــابها

الى أن يقول :

ولا تجزعوا منها فان ســـيوفنا
لها وقعـة بالموت يفتح بابهــــا

ثم يتم فتح مكة ويدخل الجيش الاسلامى وعلى رأسه قائده محمد صلى الله عليه وسلم فيعلن حسان انتصار الاسلام وانتصار الأنصار بقصيدته التى عرف بها ومطلعها :

عفت ذات الأصــابع فالجـــواء
الى عـــذراء منزلهـا خــــلاء

وفيها تلك المقدمة التى استنكرها المسلمون بسبب ما ذكر فيها من وصفه للخمر وشربها ، ولكن علل ذلك النقاد بأنها من نظمه فى الجاهلية وأكملها فى الاسلام . ومن هذه القصيدة يقول حســان :

عدمنــــا خيلنــــا ان لم تروهـا
تثـير النقـــع موعــــدها كداء
ينازعن الأســـــنة مصــــغيات
على أكتافها الأســـل الظمــــاء

تظـــل جيـــــادنا متمطـــرات
يلطمهن بالخمـــــر النســـــاء
فامـا تعرضـــوا عنـــا اعتمرنا
وكان الفتح وانكشف الغطـــاء

وتتوالى الأحداث وحسان يشارك فيها بشعره كما شارك قبل ذلك وهو فى كل مرة يسجل الحدث ويوضح رأى المسلمين فيه . ثم يأتى يوم يقبض الرسول فيه وتصعد روحه الى الملأ الأعلى فيبكيه حسان لا كما يبكيه كل المسلمين ، ولكن كما يبكيه شاعر رافق الرسول فى أهم فترات حياته ، وشارك فى كل حدث مر به صلى الله عليه وسلم بقلبه ولسانه ، وأحس بمشـاعر المسلمين وعواطفهم تجاهه ، فكان بكاؤه تسجيلا لهذا الحادث الجلل ، وتعبيرا عن أحزان أمة خلقها الرسول صلى الله عليه وسلم برسالته وارشاده . وكانت أهم قصيدة رثى بها حسان الرسول صلى الله عليه وسلم تلك التى مطلعها :

بطيبة رســم للرســول ومعهـــد
منير وقد تعفو الرســوم وتهمـد

والآن ما هى المعانى التى صور بها حسان مشاركته لحياة الرسول والمسلمين وكيف كان ذلك ؟ وهل استطاع أن يطور فنه عن الصورة التى رأيناها عليه فى الجاهلية ؟ هــذا ما نود أن نجيب عليه .

الفصل الثالث

شعر حسّان الإسلامى

لم تتوقف طبيعة حسان الفنية عن خلق الشعر ، وخاصة أن العوامل التى كانت تدفع الجاهلى الى نظمه استمرت تدفعه بعد أن أسلم وان اختلفت أهدافها . فالقتـــال ناشب بين المسلمين والمشركين كما كان ناشبا بين القبائل الجاهلية ، والأحداث تتوالى بسرعة لا تترك مجالا للفكر كى يتأمل ، وانما للعاطفة كى تلتهب. ولقد عاش حسان الأحداث كما رأينا وانفعل بها ، وشارك فى التعبير عنها . فكان لابد أن ننظر هل اختلف تعبيره فيها عن تعبيره فى مشابهاتها فى الجاهلية .

أ ـ حسان والمقدمات الطللية والغزلية :

لا يقوم حسان فى هذا الموضوع معانى أو صورا جديدة ، بل هى نفس الصور الجاهلية القديمة ، وان كان قد قلل عــدد أبيات مقطوعاتها ومثل ذلك قصيدته فى مدح الأنصار وفيها يقول:

أهاجك بالبيــداء رســم المنــازل
نعم ! قد عفاها كل أســحم هاطل
وجرت عليها الرامســات ذيولهـــا
فلم يبق منها غــير أشــعث مــائل

ديار التى راق الفـؤاد دلالهـــا
وعز علينـــا أن تجـــود بنـــائل

ويمتاز حسان فى أنه ماهر فى ربط موضوع مقدمته بموضوع القصيدة الرئيسى ، فقليلا ما نحس بالفجوة بين الموضوعين على عكس ما نجد عند كثير من شعراء عصره ، فنراه مثلا فى مقدمة القصيدة التى يرثى بها شهداء أحد يقول :

تأوبنى ليـــــل بيثرب أعســـر
وهم اذا ما نوم النـــاس مسهر (١)
لذكـــرى حبيب هيجت ثـــم عـــبرة
ســـــفوحا وأســـباب البكاء التذكر
بلاء وفقـــدان الحبيب بليـــــــة
وكم من كريم يبتـــــلى ثم يصـــبر
رأيت خيـــــار المؤمنين تواردوا
شـــعوب وقد خلفت فيمن يؤخـــر

وقد يبدأ قصيدته ثم سرعان ما يضيق بالمقدمة لأن الموضوع الرئيسى يأخذ عليه نفسه ، ويشغله عن غيره فيخرج منها بذلك التعبير المألوف عند كثير من شعراء عصره وهو : دع ذا ..

يقول :

زادت هموم فمـــاء العين ينحـــدر
ســـــحا اذا أغرقتـــه عبـــرة درر

---

(١) تأوبنى : عاودنى .

وجدا بشعثاء اذ شعثاء بهكنة
هيفاء لا دنس فيها ولا خور [1]

دع عنك شعثاء اذ كانت مودتها
نزرا وشر وصال الواصل النزر

وأت الرسول فقل يا خير مؤتمن
للمؤمنين اذا ما عدل البشر

وأهم ما يلاحظ على معظم شعر حسان الاسلامى أنه شعر مقطوعات وليس شعر قصائد وهذا النوع لا يتطلب مقدمات لأن ظروفه تدفع الشاعر الى موضوعه مباشرة دون تقديم ، وكانت الحياة حول حسان وبين الرسول والمسلمين تقتضى منه أن يكون سريعا فى مقاومة المشركين بفنه حتى يبطل كيدهم ، ويرد غوائلهم ، كذلك كانت الأحداث تجرى بسرعة لا تترك للشاعر فرصة أن يتأمل ويفكر لينظم وانما تدفعه دفعا لأن يلاحقها بنفس سرعتها ، والمطلع على مخطوطات ديوان حسان يلحظ كل ذلك وقد أضيف الى هذه العوامل عامل آخر وهو أن مناقضة حسان لشعراء المشركين كانت تستغرق معظم فنه ، وان من طبيعة هذه المناقضة — كما سنرى فيما بعد — أن توجه الشاعر الى موضوعه مباشرة .

---

(١) البهكنة : الجارية الخفيفة الروح الجميلة الطيبة الرائحة.
والشباب البهكن : الغض

ب ـ حسان ووصف الخمر :

عرفنا — من قبل — أن الخمر احتلت من حياة حسان الجاهلية ومن شعره فيها مكانا مرموقا وكانت تمثل مظهرا من مظاهر فتوته، وموضوعا من موضوعاته فى فخره ومدحه فكيف كان أمرها معه فى الاسـلام .

لا نجد أخبارا حتى عهد عمر بن الخطاب تشير الى أن حسان كان يجلس فى مجالس الخمر ، بل ان هناك أخبارا بعد ذلك تحدثنا أنه كان يحضر مجالس الغناء ولكنها لا تشير صراحة الى أنه كان يشرب فيها الخمر وكان يحدث أن يقول لمن حضرة فى مجلس منها وكان معهم ولده عبد الرحمن « وأنتم اليوم مسلمون تشربون هذا النبيذ من التمر والفضيخ من الزهر ، فلا يشرب أحدكم ثلاثة أقداح حتى يصاحب صاحبته ويفارقها وتضرب فيه كما تضرب غرائب الابل فلا تنتهون » .

ونجد فى قصيدة يمدح بها الرسول مقدمة طلية طويلة تنتهى بوصف لمجلس من خمر يشارك فيه يقول :

عفت ذات الأصـابع فالجــواء
الى عـذراء منزلهـا خـــلاء

ديار من بنى الحسحاس قفــر
تعفيهـا الروامس والســماء

وكانت لا يزال بهـــا أنيس
خـــلال مروجها نعـم وشـاء

فدع هـــــذا ولكن ما لطيف
يؤرقنى اذا ذهب العشـــــاء

لشـعثاء التى قــد تيمتـــــه
فليس لقلبـــه منها شـــفاء

كأن خبيئـــــة من بيت رأس
يكون مزاجهـا عسـل ومـــاء[1]

على أنيـــابها أو طعــــم غض
من التفـــاح هصره الجنـــاء [2]

اذا ما الأشربات ذكرن يومـــا
فهن لطيّب الـراح الفـــداء

نوليهـــا الملامة ان ألمنـــا
اذا ما كان مغث أو لحـــاء [3]

ونشربها فتتركنـــا ملـــوكا
وأســـدا ما ينهنهنا اللقـــاء[4]

وقد علل القدماء هذه الظاهرة فقالوا ان هــذا الجزء من القصيدة كان قد نظمه حسان فى الجاهلية فلما جاء الاسلام وأراد

---

(١) خبيئة : اى مصونة مضنون بها لنفاستها . بيت راس : موضع بالأردن مشهور بالخمر . ويكون هنا ملغاة .

(٢) على أنيابها خبر كأن فى البيت السالف وقوله « أو طعم غض » عطف على سيئة وقوله « هصره الجنـــاء » أى أماله أى أن التفاح قد نضج .

(٣) المنـــا : أى اتينـــا ما نلام عليـــه ، مغث (الشر والقتال) اللحاء السباب .

(٤) ينهنهنا : أى يكفنا .

أن ينظم قصيدة فى مدح الرسول أكمل هذه المقدمة بمدح للرسول صلى الله عليه وسلم ، وجاء قولهم هذا تفسيرا للخبر الذى رواه مصعب الزبيرى حين قال : هجم حسان على فتية من قومه يشربون الخمر فعيَّرهم فى ذلك ، فقالوا : يا أبا الوليد ما أخذنا هـذا الا منك وانا لنهم بتركها ثم يثبطنا عن ذلك قولك :

ونشربها فتتركنـــا مـــلوكا
وأســـدا ما ينهنهنـــا اللقـاء

فقال حسان : هذا شيء قلته فى الجاهلية ، والله ما شربتها منذ أسلمت . ورأى القدماء ضعيف ، اذ لم يكن صعبا على حسان أن يبدأ فى نظم قصيدة جديدة وخاصة أنها فى مدح الرســول وفى استعداد ليوم عظيم وهو يوم فتح مكة ، غير أن القـدماء استعظموا الأمر ولم يجدوا سوى تعليلهم هذا ، وقد يقال ان هذه القصيدة ربما نظمها حسان قبل تحريم الاسلام للخمر تحريما نهائيا ، وخاصة أننا نجد فى رواية لابن سلام أن هذه القصيدة أول ما نظم حسان فى الاسلام ، أما اذا كانت قد نظمت فى وقت متأخر فلا شك أن ذكر الخمر فيها تقليد للفن الجاهلى القديم .

وعلى كل ، فقد اختفت الخمريات فى شعره الاسلامى رغم أنها كانت من موضوعات شعره الرئيسية فى الجاهلية .

ج ـ حسان بين المدح والفخر :

لقد شغل موضوعا المدح والفخر كل شعر حسان فى الجاهلية، واستغرقا كل جهده الفنى متنقلا بهما بين قومه من الخــزرج وأقربائه من الغساسنة فاذا نظرنا الى هذين الموضوعين فى الاسلام

فلن نجد فرقا كبيرا لا فى نسبة استغراقها لمعظم شعره الاسلامى أو فى طريقة معالجته لهما ، فالموضوعان مرتبطان ببعضهما عنده ، فالقصيدة التى يمدح بها الرسول صلى الله عليه وسلم يتغنى فيها بمؤازرة الأنصار له ، بل انه فى بعض هذه القصائد يفخر فيها بمعاونة بنى النجار خاصة للرسول وللمسلمين يقول :

منعنا رسول الله اذ حل وسطنا
على كل باغ من معد وراغم
منعناه لما حل بين بيوتنا
بأسيافنا من كل عاد وظالم
بحى حريد عزه وثراؤه
بجابية الجولان وسط الأعاجم[1]
هل المجد الا السؤدد العود والندى
وجاه الملوك واحتمال العظائم[2]

ومن أشهر ما مدح به حسان رسول الله صلى الله عليه وسلم قصيدتان الأولى همزية وهى التى مطلعها :

عفت ذات الأصابع فالجواء
الى عذراء منزلها خلاء

---

(١) حريد : اى منفرد عن الجماعة لا يخالطهم ارتحاله وحلوله. جابية الجولان موضع بالشام .

(٢) العود : اى القديم الذى يتكرر مع الزمان .

والأخرى عينية ومطلعها :

ان الذوائب من فهــر واخوتهـــم

قد بينوا ســـــنة للنـــاس تتبع

وتظهر المعانى الاسلامية فى شعر حسان فى هذه الفترة ، فاذا نظرنا مثلا فى قصيدته الأولى نجده يقول :

وجبريل رســـــول الله فينــــا

وروح القــدس ليس له كفـــــاء

ويقول فى قصيدة أخرى فى غزوة الخندق :

وغــــدوا علينا قادرين بأيدهـــم

ردوا بغيظهـم عــلى الأعقــاب (١)

بهبوب معصفة تفــرق جمعهـــم

وجنــود ربك ســـيد الأرباب

وهذا المعنى ما جاء فى قوله عز وجل « يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحـا وجنودا لم تروها » .

ان شعر حسان تسجيل حى لحياة الرسول وغزواته ، وقد اعتمد عليه شراح السيرة فى تفسير بعض ما غمض من تاريخ هذه الفترة ، واذا كان الأستاذ جيوم guillcume فى مقدمته لترجمة سيرة ابن هشام يشير الى أنه ينبغى الاهتمام بمن ذكر فيها من شعراء وما روى لهم من شعر وخاصة حسان ، فاننا نقول ان القدماء اهتموا بهذا الشعر كوثيقة تاريخية ودينية مما سبب

(١) الأيد : القوة .

مشاكل خطيرة فى روايته والنظر اليه وهو ما حاولنا أن نشير اليه اشارة سريعة فى مقدمة هذا الكتاب .

مدح حسان رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعان كثيرة منها الجاهلى القديم ومنها الاسلامى المستحدث ، وقد اتخذ مدحه للرسول صفة الفخر بالمسلمين جميعا وخاصة الأنصار والرد على المشركين ومهاجاتهم ، وكان حسان سلاحا خطيرا فى أيدى المسلمين لا يقل عن أسلحتهم الحربية الأخرى فهو صحيفتهم اليومية وهو لسان دعايتهم . وقد قدر الرسول هذا كله فكان يدعو له قائلا « اللهم أيده بروح القدس » ولقد تطورت هذه الفكرة عند بعض المسلمين حتى قالوا ان جبريل كان يمده بأبيات تساعده فى نظم قصائده !

والمعانى الجاهلية التى مدح حسان بها الرسول والمسلمين هى القيم التى يجلها العرب ويحترمونها كما استمر يجلها الاسلام ويحترمها مثل الدفاع عن الجار والذمار والكرم والشجاعة ونجدة الضعيف واحترام العهود وكلها معان رددها حسان فى شعره الاسلامى ، وامتنع حسان عن التمدح بشرب الخمر واللعب بالميسر وذكر الأيام الجاهلية الا ما لا يثير منها الفتنة بين المسلمين ويثيرها بين المشركين .

ها هو يفتخر بانتصار المسلمين فى بدر ، فيردد صورا جاهلية وان كانت بعض المعانى الاسلامية تتخللها ، وتظهر فيها براعة

حسان فى الربط بين المقدمة الغزلية وبين الموضوع الرئيسى .
يقــول :

يا من لعـــاذلة تلـوم ســـفاهة
ولقد عصيت الى الهـوى لوامى
بكرت على بســحرة بعـد الكرى
وتقــارب من حـــادث الأيام
زعمت بأن المرء يكرب يومـــه
عــدم لمعتكر من الاصـــرام [1]
ان كنت كاذبة الذى حـــدثتنى
فنجوت منجى الحارث بن هشام[2]
ترك الأحبـــة أن يقاتل دونهـــم
ونجـا برأس طمـــرة ولجـــام
جرداء تمزع فى الغبـــار كأنهـا
سرحان غاب فى ظـــلال غمـام[3]

---

(١) يكرب : يحزن من الـكرب ، والمعتكر الابل التى ترجع فى عدد غفير فلا يمكن عدها لكثرتها ، والاصرام جمع صرم وصرم جمع صرمة وهى القطعة من الابل ، ولعل يكرب هنا معناها يقرب يتـكون المعنى : زعمت أن الرجل يقرب يومه اى أجله الفقر ، تأمره بعدم الاسراف .

(٢) وكان قد فر من المعركة فى بدر .

(٣) تمزع : تثب ، السرحان : الذئب .

تذر العنـــاجيج الجيـــاد بقفـــرة

مر الذمول بمحصـــــد ورجام [1]

مــلأت به الفرجـــين فارمـــدت به

وثوى أحبته بشـــــر مقـــــام [2]

وبنو أبيـــه ورهطـــــه فى معـــرك

نصر الالـــه به ذوى الاســــلام

طحنتهم — والله ينفـــذ أمره —

حرب يشب ســـعيرها بضـــــرام

لولا الالـــه وجـــريه لتركنـــه

جزر السباع ودســــــنه بحوام [3]

وفى أحد نراه يفخر بماضيه الجاهلى حين يهاجى ابن الزبعرى وكأنه يوم من أيام الجاهلية ، لا يوم من أيام الاســـلام فيقول :

ان خالى خطيب جابيـــة الجـــو

لان عنـــد النعمـــان حين يقـــوم

وأبى فى ســـميحة القـــائل الفـــا

صـــل يوم التقت عليه الخصـــــوم

وأنا الصـــقر عنـــد باب ابن سلمى

يوم نعمــــان فى الكبول مقيـــم

---

(١) تذر : تدع والعنــــاجيج جمع عنجوج وهو النجيب من الخيل .

(٢) أرمدت : أسرعت .

(٣) الحوامى : ميامن الحافر ومياسره .

وأبى ووافـــد أطلقـــــا لى
ثم رحنـا وقفلهـــم محطـــوم

ورهنت اليدين عنهـــم جميعـــا
كل كف فيها جـز مقســـوم [1]

وسطت نســـبتى الذوائب منهـم
كل دار فيهـــا أب لى عظيـم [2]

وبنفس المعانى والصور يقول فى أحد أيضا :

فان تسألى الأقـــوام عنى فاننى
الى محتـــد تنمى اليـه المحـاتد

أنا الزائر الصقر ابن سلمى وعنـده
أبى ونعمـــان وعمـرو ووافـد

فأورثنـا مجـدا ومن يجن مثلهـا
بحيث اجتنـاها ينقلب وهو حامد

وجدى خطيب النـاس يوم سميحة
وعمى ابن هند مطعـم الطير خالد

ثم يفخر باستشهاد أخيه أوس بن ثابت فى أحد ، كما يفخر بحفظه لحق الجوار لأن حفظ الجوار أمانة فى عنق الجاهلى الحق:

ومنا قتيل الشعب أوس بن ثابت
شهيدا وأسنى الذكر منـه المشاهد

---

(١) رهنت اليدين منهم اى ضمنتهم ، وجز أصلها جزء ، نقل حركة الهمزة ثم حذفها .
(٢) وسطت : اى توسطت ، والذوائب : الأعالى اى الاشراف .

ومن جده الأدنى أبى وابن أمـــه
لأم أبى ذاك الشـهيد المجـــاهد
وفى كل دار ربة خزرجيـــــة
وأوســية لى من ذراهن والــد [1]
فما أحـــد منا بمهـــد لجـاره
أذاة ولا مـــزر به وهو عـــابد
لأنا نرى حـق الجـوار أمـــانة
ويحفظه منـــا الكريم المعـــاهد

ونقف قليلا عند مدحة مدح بها حسان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمام وفد بنى تميم ومعهم شاعرهم الزبرقان بن بدر لتكامل عناصرها ، فقد لاقت استحسانا كبيرا من الرواة القدماء والنقاد المحدثين .

وأول ما يمدح به حســان الرسول هو هذا الدين الجديد ، ولم يستطع حسان أن يتخيل الرسول خارج قبيلته ، وأنه أصبح فردا لا يخضع للتأثير القبلى وكأنه يشعر أن وفد بنى تميم سوف لا ينظر الى شعره بعين الاعتبار اذا لم يمدح الرسول فى قبيلته ، فهذا هو التقليد المألوف . يقول :

---

(١) دار ربة : أى ضخمة .

ان الذوائب من فهر واخوتهم
قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بها كل من كانت سريرته
تقوى الاله وبالأمر الذى شرعوا

ثم ينتقل بعد هذا الى قدرتهم على القتال وانتصارهم فى الحروب ، وحسان يقرن بين قبيلة الرسول وبين الأنصار فى هذه الصفة . ورغم أن جزءا كبيرا من قبيلة الرسول ما زال مشركا الا أنه يتجاهل هذه الحقيقة لأن التقليد الجاهلى يرى أن القوة بالقبيلة لا بمن ينزل بين أفرادها ويستجير بها . يقول :

قوم اذا حاربوا ضروا عدوهم
أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا
سجية تلك منهم غير محدثة
ان الخلائق فاعلم شرها البدع

لا يرقع الناس ما أوهت أكفهم
عند الدفاع ولا يوهون ما رقعوا
ان كان فى الناس سباقون بعدهم
فكل سبق لأدنى سبقهم تبع

ثم يعرض لفضائلهم التى تتفق والقيم الجاهلية وان كان يذكر أن الوحى قد أشاد ببعضها :

ولا يضنون عن جار بفضلهم
ولا يدنسهم فى مطمع طبع

لا يجهلون وان حاولت جهلهـــم
في فضل أحلامهم عن ذاك متسـع
أعفــــة ذكرت في الوحى عفتهـم
لا يطبعــون ولا يرديهـم الطمـع
كم من موال لهـم نالوا كرامتــه
ومن عــدو عليهـم جاهــد جدعوا
خذ منهم ما أتوا عفــوا اذا غضبوا
ولا يكن همك الأمر الذى منعـوا
فان في حربهم — فاترك عداوتهم —
سما يشن عليه الصــاب والسـلع
لا فخر ان هم أصابوا من عدوهم
وان أصيبوا فلا خــور ولا جــزع

وأخيرا لا ينسى حسان الأنصار ولا التأييد الذى منحوه للرسول فيقول :

كأنهـم في الوغى والمــوت مكتنع
أســد بيشة في أرساغها فدع (١)
اعطوا نبى الهــدى والبر طاعتهـم
فما ونى نصرهم عنــه وما نزعــوا
ان قال سيروا أجدوا السير جهدهم
أو قال عوجوا علينا ساعة ربعــوا

---

(١) بيشة : موضع ينسب الى الأسود . الفدع : عوج وميل في المفاصل .

ما زال سيرهم حتى استقاد لهم
أهل الصليب ومن كانت له البيع
نسمو اذا الحرب نالتنا مخالبها
اذا الزعانف من أظفارها خشعوا
اذا نصبنا لقوم لا ندب لهم
كما يدب الى الوحشية الذرع
أكرم بقوم رسول الله قائدهم
اذا تفرقت الأهواء والشيع
أهدى لهم مدحتى قلب يوازره
فيما يحب لسان حائك صنع
فانهم أفضل الأحياء كلهم
ان جد بالناس جد القول أو شمعوا

د ـ حسان وفن الهجاء .

كان الهجاء فى شعر حسان الجاهلى قليلا ، وكان متصلا بنغمة الفخر فى معارضاته لقيس بن الخطيم ، ومعظمه يدور حول الجبن والهرب من المعركة ، أو الهزيمة والذلة التى تتبعها ، ولم يفحش حسان فى هذا الهجاء ، وانما هو هجاء الأبطال للأبطال كأن يقول فى يوم الدرك[1] :

(١) قال ابن الكلبى : كان بين بنى النجار وبنى خطمة اختلاف فى حليف لبنى بياضة من بنى عبس هو الشاعر عروة بن الورد ، فالتقوا بالدرك فاقتتلوا قتالا شديدا حتى كثرت القتلى بينهم ورئيس الخزرج يومئذ عمرو بن النعمان البياضى وكان ظفر ذلك اليوم لهم .

وأفلت يوم الروع أوس بن خـالد
يمج دما كالرغث مختضب النحـر
فان تنج منهـا يا جـوى فانهـا
رحاب كجوف الغـار مظلمة القعر

أو يقول :

ويثرب تعـلم أن النبيـ
ت عنـد الهزاهـز ذلانهـا

الى أن يقول :

فلا تفخـرن والتمس ملجـأ
فقـد عـاد للأوس أديانهـا

ويقول فى حرب بعاث هاجيا الأوس :

دع ذا وعـد القريض فى نفـر
ما لهـم غير سـبتى شـرف
كيف تعاطون مجـدنا سـفها
وأنتـم دعـوة لهـا وكف (١)

الى أن يقول :

وكم قتلنـا من رائس لكـم
فى فيـلق يجتـدى له التلف
ومن لئيـم عبـد يحالفكم
ليست لـه رتبـة ولا أنف

---

(١) الدعوة : أن ينتسب الانسـان الى غير أبيه أو عشيرته
الوكف : العيب والنقص .

ويظهر أن والد حسان كان رجلا ساخرا ذا ميل للهجاء ، فقد حدث أن أسرته مزينة فعرض عليهم الفداء فقالوا : لا نفاديك الا بتيس . ومزينة تسب بالتيوس لأنها تقتنيها وتربيها فأبى وأبوا فلما طال مكثه فيهم أرسل الى قومه أن أعطوهم أخاهم وخذوا أخـاكم .

ويظهر أن حسان فى الجاهلية كان يستعدى الشعراء الآخرين على خصومه ، أما فى الاسلام فقد امتاز حسان فى فن الهجاء حتى خاف المشركون لسانه ، وكان الرسول صـلى الله عليه وسلم يقول « لهذا أشد عليهم من وقع النبل » وقال أبو عبيدة : كان المخبل القريعى أهجى العرب . بلغنا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

انما هو عذاب يصبه الله على من يشاء من عباده ، ثم كان بعده حسان بن ثابت رضى الله عنه ثم الحطيئـة والفرزدق وجـرير والأخطل ، هؤلاء الستة الغاية فى الهجاء وفى غيره ، لم يكن فى الجاهلية ولا فى الاسلام لهم نظير . ولم يكن حسان وحده الذى يهجو المشركين ويدافع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن كان هناك شاعران آخران هما عبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وقد تخصص حسان وكعب فى الرد على شعراء المشركين بمثل قولهم فى الوقائع والأيام والمآثر وهجائهم بالمثالب ، أما عبد الله ابن رواحة فكان يعيرهم بالكفر ، فكان قول حسان وكعب أشد القول عليهم وهم مشركون ، فلما أسلموا كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لحسان : يا حسان اذهب الى أبى بكر فليحدثك حديث القوم وأيامهم وأحسابهم ثم أهجهم وجبريل معك . فلما أنشدت قريش شعر حسان قالت : هذا الشتم ما غاب عن ابن أبى قحافة ، يعنون أبا بكر .

والآن ، كيف كان حسان يهجو قريشا بأنسابها وأيامها ورسول الله صلى الله عليه وسلم منها ، وخاصة بعد ما أدرك النبى دقة الموقف ، فقد هجا شاعر من قريش الرسول ، وأراد حسان أن يرد عليه فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم منها ، « كيف وأنا منه وهو منى » فقال حسان : والله لأسلنك منه كما تسل الشعرة من العجين !

ان طريقة حسان فى هجاء القريشيين هو أن ينفى نسبهم من قريش وينسبهم الى فرع القبيلة البعيد ويهجوهم من خلاله أو ينسبهم الى قبيلة أخرى . يقول مثلا فى هجاء المغيرة :

اذا نسبت يوما قريش نفتكم
وان تنتسب شجع فأنت نسيبها

وان التى ألقتك من تحت رجلها
وليدا لمهجان الغذاء خبوبها

وأمك من قسر حباشة أمها
لسمراء فهم أسن البول طيبها

فهو ينفى المغيرة من قريش وينسبه الى شجع بطن من كنانة وهم بنو شجع بن عامر بن ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة

وبذلك نجح حسان فى هجاء القرشيين دون أن يمس رسول الله صلى الله عليه وسلم .

مثال آخر يوضح هذه الطريقة التى كان يهجو بها القرشيين . يقول فى هجاء بنى عوف بن عبد عوف :

وسـائل قريشـا وأحـلافها
متى كان عـوف لهـا ينسـب
أفيمـا مضى نسـب ثابت
فيعـلم أم دعـوة تكذب
فان قريشـا سـتنفيكم
الى نسـب غـيره أثقب
الى جـذم قين لئيـم العـرو
ق عرقـوب والـده أصـهب
الى تغلب انهـم شرجيـل
فليس لكـم غيرهـم مـذهب
وقد كان عهـدى بها لـم تنـل
سـنيا ولا شـرفا تغلب

فهذا حسان ينفى بنى عوف من انتسابهم لقريش وينسبهم الى تغلب ، بل انه ينسبهم الى غير العرب لأن العرب يصفون الروم بأنهم صهب السبال . والصهبة الحمرة .

وقد نفى أحد علماء القرن الثالث وهو العدوى أن تكون هذه الأبياتَ لحسان دفاعا عن بنى عوف وحجته فى ذلك أن نسب عبد الرحمن بن عوف صحيح لا غمز فيه وهذا الدليل لا يكفى

لنفى هذا الشعر لأن الشاعر — كما رأينا — يتحايل ويبحث فى نسب بنى عوف عن نقطة ضعف يتشبث بها فان لم يجد ادعى ما يريد حتى يصيب الخصم فى أهم ما يمس العربى وهو نسبه .

ورغم أننا نستطيع أن نثبت أن هذه الأبيات حقيقة ليست لحسان الا أن هذا يدل على أن الذين يضعون الشعر يعرفون طريقة حسان فى هجاء القرشيين وهى انه ينفى نسبهم من قبيلة الرسول وينسبهم الى بطون القبيلة البعيدة أو الى قبائل أخرى لهم بها نسب وبذلك يحقق حسان قوله للرسول عليه السلام سأسلك منهم كما تسل الشعرة من العجين !

وطريقة أخرى اتخـذها حسان فى هجـاء مشركى قريش بالأنساب وهى أنه بعد أن ينفيهم من نسبتهم الى آبائهم ينسبهم الى أمهاتهم ويقذع فى هجائهم . يقول فى هجاء الوليد بن المغيرة .

ان التى ألقتـــك من تحت رجلهـا
وليدا لمجهـــال العشى خبـــوب
ليـالى يدعى ديسما بابن صـقعب
لما ضـم زوج الكلبتين ضـــروب
فمالك من كعب حصـاة تعــدها
وان قلت من شـجع فأنت كذوب
ولكن قينـا حمـم الكير أنفـــه
لئيـم المحيـــا للئـــام ربيب
اذا حصلت كعب نمـوا لأبيهـــم
فطـابوا وان تنسب فثـــم تخيب

فما لك فى الركنين حق حجاجة
ولا لك فى صهر النبى نصيب

ويقول فى مخرمة بن المطلب وأبى صيفى بن هاشم بن عبد مناف هاجيا لهما بأمهما :

اذا ذكرت عقيلة بالمخازى
تقنع من مخازيها اللئام
أبو صيفى الذى قد كان منها
ومخرمة الدعى المستهام
اذا شتموا بأمهم تولوا
سراعا ما يبين لهم كلام

ويقول فى هجاء أبى سفيان هاجيا له بالطريقة الأولى وهى نفيه من قريش :

لعمرك ان الك من قريش
كال السقب من رأل النعام [1]
فانك اذ تمت الى قريش
كذات البو جائلة المرام
وانك اذ تمت الى قريش
كما نيط السرائح بالخدام
فلا تفخر بقوم لست منهم
ولا تك كاللئام بنى هشام

---

(١) الال : الأصل .

ويظهر الأقذع فى الهجاء فى شعر حسان عندما يهجو شعراء المشركين أو يهجو المشركين أنفسهم ومن أمثلة هذا الفحش الصارخ قوله فى هجاء هند بنت عتبة .

أشرت لكاع وكان عادتها
لؤم اذا أشرت مع الكفر

وهو فى هجائه يذكر العورات الجنسية ويهاجم بالصاق الفحش بأصحابها مما يصعب علينا أن نذكر شواهد من هذا الشعر. وربما كان أخف ما هجا به حسان أبا سفيان بن الحارث :

أجمعت أنك أنت ألأم من مشى
فى فحش مومسة وزهو غراب
وكذاك ورثك الأوائل انهم
ذهبوا وصرت بخزية وعذاب
فورثت والدك الخيانة والخنا
واللؤم عند تذاكر الأحساب

وقد استغل حسان الأخبار التى تشين الأفراد فى هجائهم بها ، كما فعل فى هجائه لصفوان بن أمية ، وكان أبوه — أمية — قد تزوج أمة لمعمر بن حبيب على أنها ابنته ، فولدت منه صفوان، فلما عرف الحقيقة طلقها ، فزوجها معمر مولى حبشيا يقال له الحنبل بن مليك فولدت له عبد الرحمن وكلدة ابنى حنبل فكانا أخوى صفوان لأمه فقال حسان يهجو صفوان فى أمه :

من مبلغ صفوان أن عجوزه
أمة لجاره معمر بن حبيب

مة يقال من البراجم أصلها
نسب من الأنساب غير قريب

ويأتى بعد ذلك بيت قد أفحش فيه .

وهكذا كان حسان قاسيا فى هجائه وخاصة اذا تعرض للأنساب فانه يقذع فيها والنسب عند العربى أهم ما يحرص عليه ويدافع عنه ، فكان هجاء المشركين من خلاله أشد عليهم من وقع النبل كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد شابت السخرية المرة هجاء حسان ، وهى سخرية تضحك الآخرين وتؤلم من تلتصق به كما فعل بجذام عندما قال :

لعمر أبى سمية ما أبالى
أنب التيس أم نطقت جذام
اذا ما شاتهم ولدت تنادوا
أجدى تحت شاتك أم غلام

فالهجاء هنا ليس سبا أو مسا للأنساب ، أو تقطيعا للأعراض ولكن صورة ساخرة لجذام ليس لها من مدلول أكثر من أن يجعل من يستمع اليها يضحك من سخريته بهم .

هـ - حسان والرثاء :

لانجد فى ديوان حسان شعرا فى الرثاء قبل الاسلام وانما نجد كل قصائده فى الرثاء اسلامية .

فاذا نظرنا فى رثائه للرسول صلى الله عليه وسلم فسنجد أن فى ديوانه أربع قصائد فى رثائه ، اثنتان منها مصنوعتان بنص

صريح من العدوى اذ يقول : ليست فى كتاب أبى عمرو ولا رواها ابن الاعرابى وأحسبها مصنوعة . أولاهما :

نب المساكين ان الخير فارقهم
مع الرسول تولى منهم سحرا

وثانيتهما :

يا عين جودى بدمع منك اسبال
ولا تملن من سح واعوال

أما القصيدتان الأخريان فهما ضعيفتا النسج ، ضحلتا العاطفة ليس فيهما ذلك الجزع أو الحزن فضلا عن التأثر الخفيف بموت رجل ليس كغيره من الرجال وانما نبى ورسول غير المجتمع الحجازى دينا وتقاليد وتنظيما !

وهاتان القصيدتان هما :

آليت حلفة بر غير ذى دخل
منى ألية بر غير افناد
ما بال عينى لا تنام كأنما
كحلت مآقيها بكحل الاثمد

ونستطيع أن نقول اننا بانكارنا نسبة هاتين القصيدتين لحسان فلن نجد له شعرا آخر فى رثاء الرسول . فهل نقول انه لم يرث نبيه الذى مدحه ودافع عنه بالشعر طول حياته ؟ انه احتمال بعيد ! وخاصة أن ذلك يثير الأقاويل حول حبه للرسول وللدين الجديد . والاحتمال الآخر أن شعر حسان فى رثاء الرسول صلى الله عليه وسلم قد ضاع ولم يصل الينا بدليل أننا نجد فى مغازى

ابن اسحاق قصـــيدة لم يروها رواة الديوان ورواها أبو زيد الأنصارى — وهو الراوى الثقة — وهى تلك التى مطلعها :

بطيبة رسم للرســـول ومعهـــــــد
منير وقد تعفـــو الرسوم وتهمـد

وقارىء شعر حسان لا يجد خيرا من هذه القصيدة فى رثائه وفى تعديد صفاته صلى الله عليه وسلم ، بل ربما نعتبرها من أحسن ما نظم فى الاسلام — اذا حذفنا بعض أبياتها الركيكة— وذلك لتغلغل الروح الاسلامية فيها مع احتفاظها بقوة السبك وجزالة التركيب . ولن نجد خيرا من تسجيلها هنا كاملة لتصور نفسها بنفسها .

بطيبة رسم للرســـوم ومعهـــــــد
منير وقد تعفــو الرســوم وتهمد
ولا تمتحى الآيات من دار حرمــة
بها منبر الهادى الذى كان يصـعد
وواضــــح آثار وباقى معــــــالم
وربع له فيه مصــــلى ومســـجد
بها حجرات كان ينزل وســــطها
من الله نــور يســـتضاء ويوقــد
معارف لم تطمس على العهــد آيها
أتاها البـــلى فالآى منهـا تجـــدد

عرفت بها رسم الرسول وعهده
وقبرا بها واراه فى الترب ملحد [1]
ظللت بها أبكى الرسول فأسعدت
عيون ومثلاها من الجفن تسعد
يذكرن آلاء الرسول وما أرى
لها محصيا نفسى فنفسى تبلد
مفجعة قد شفها فقد أحمد
فظلت لآلاء الرسول تعدد
وما بلغت من كل أمر عشيره
ولكن نفسى بعد ما قد توجد
أطالت وقوفا تذرف العين جهدها
على طلل القبر الذى فيه أحمد
فبوركت يا قبر الرسول وبوركت
بلاد ثوى فيها الرشيد المسدد
وبورك لحدمنك ضمن طيبا
عليه بناء من صفيح منضد
تهيل عليه الترب أيد وأعين
عليه وقد غارت بذلك أسعد
لقد غيبوا حلما وعلما ورحمة
عشية علوه الثرى لا يوسد

---

(١) يظهر أن حسان نظم هذه القصيدة بعد وفاة الرسول بمدة .

وراحوا بحزن ليس فيهم نبيهـــم
وقد وهنت منهم ظهــور وأعضــد
يبكون من تبــكى السماوات يومه
ومن قد بكته الأرض فالناس أكمد
وهل عــدلت يوما رزية هـــالك
رزية يوم مـات فيــه محمــــد
تقطــع فيــه منزل الوحى عنهــم
وقد كان ذا نور يغــور وينجــد
يدل على الرحمن من يقتـــدى به
وينقذ من هول الخزايا ويرشــــد
امام لهم يهــديهم الحــق جاهدا
معلم صدق ان يطيعــوه يســعدوا
عفو عن الزلات يقبــل عــذرهم
وان يحسنوا فالله بالخـير أجـود
وان ناب أمر لــم يقوموا بحمــلة
فمن عنــده تيســير ما يتشــــدد
فبيناهـــم فى نعمــة الله بينهـم
دليل به نهــج الطريقـــة يقصــد
عزيز عليه أن يجوروا عن الهــدى
حريص على أن يستقيموا ويهتــدوا
عطوف عليهم لا يثنى جناحـــــه
الى كنف يحنــو عليهم ويمهــــد

فبيناهم فى ذلك النـور اذ غـدا
الى نورهم سهم من الموت مقصـد
فأصبح محمودا الى الله راجعـا
يبكيه حـق المرسـلات ويحمـد
وأمست بلاد الحرم وحشـا بقاعها
لغيبة ما كانت من الوحى تعهـد
قفارا سوى معمورة اللحـد ضافها
فقيـد يبكيـه بلاط وغـرقد
ومسجده فالموحشـات لفقـده
خـلاء له فيـه مقـام ومقعـد
وبالحجـرة الكبرى له ثم أوحشت
ديار وعرصـات وربع ومولـد
فبكى رسول الله يا عـين عـبرة
ولا أعرفنـك الدهـر دمعك يجمد
ومالك لا تبكين ذا النعمـة التى
على الناس منهـا سابغ يتغمـد
فجودى عليـه بالدمـوع وأعولى
لفقد الذى لا مثله الدهر يوجـد
وما فقد الماضـون مثـل محمـد
ولا مثـله حتى القيـامة يفقـد
أعف وأوف ذمـة بعد ذمـة
وأقرب منـه نائلا لا ينكـد

وأبذل منـــه للطـريف وتالـــد
اذا ضن معطاء بما كان يتـــلد
وأكرم صيتا فى البيوت اذا انتمى
وأكرم جـــدا أبطحيـا يســود
وامنع ذروات وأثبت فى العـــلا
دعائم عـز شاهقـــات تشـيد
وأثبت فرعا فى الفروع ومنبتـــا
وعودا غذاه المزن فالعود أغيـــد
رباه وليـــدا فاستتم تمـــامه
على أكرم الخـيرات رب ممجـــد
تناهت وصـــاة المسلمين بكفـــه
فلا العلم محبوس ولا الرأى يفنـد
أقـــول ولا يلغى لقـــولى عائب
من الناس الا عازب العقل مبعـــد
وليس هـوانى نازعـا عن ثنـائه
لعلى به فى جنـــة الخـلد أخلـد
مع المصطفى أرجو بذاك جـواره
وفى نيـل ذاك اليوم أسـقى وأجهد

وقد رثى حسان بعض شهداء المسلمين فى حياة الرسـول صلى الله عليه وسلم ، ومن هؤلاء سعدبن معاذ ونافع بن بديل وجعفر بن أبى طالب ، وحمزة وزيد بن حارثة وخبيب ، كذلك رثى مطعم بن عدى الذى أجار رسول الله صلى الله عليه وسلم

عندما طاف بالكعبة قبل الهجرة فى وقت اشتد فيه ايذاء المشركين له وذلك بعد وفاة عمه أبى طالب وهى أبيات جيدة يقول فيها :

أعين ألا ابكى سيد الناس واسفحى
بدمع فان أنزفته فاسكبى الدما
وبكى عظيم المشعرين وربها
على الناس معروفا له ما تكلما
فلو كان مجد يخلد اليوم ما جدا
من الناس أنجى مجده اليوم مطعما
أجرت رسول الله فيهم فأصبحوا
عباوك ما لبى ملب وأحرما
فلو سئلت عنه معد بأسرها
وقحطان أو باقى بقية جرهما
لقالوا هو الموفى بخفرة جاره
وذمته يوما اذا ما تذمما

ومن الملاحظ أن أبيات حسان فى رثاء شهداء المسلمين أفضل فنيا من تلك التى نظمت فى رثاء الرسول صلى الله عليه وسلم . وربما كان احساسه بأنهم قتلوا فى حرب بيد خصوم يعادونه كما يعادون قومه قد دفعه لأن يبكى بذلك الانفعال الذى كان يسيطر عليه اذا ما بكى خزرجيا أو نجاريا قتل فى يوم من أيامهم الجاهلية، ومن ثم فهو يضيف الى هذا الرثاء هجاء مرا لمن قتلوهم ويتبعه بفخر قوى يشيد فيه بانتصارات المسلمين . يقول راثيا حمزة رضى الله عنه :

دع عنــك دارا عفـــا رســـمها
وابك على حمــزة ذى النـــائل
المالىء الشــيزى اذا أعصــــفت
غبراء فى ذى الســنة الماحــل
والتارك القــرن لـــدى لبـــده
يعثر فى ذى الخـــرص الذابل
واللابس الخـــيل اذا أحجمت
كالليث فى غـــاباته الباســـل
أبيــض فى الذروة من هاشـــم
لم يمـــر دون الحق بالباطـــل

بقى بعد ذلك ما أثاره الرواة والنقاد القدماء من أن شعر حسان ضعف فى الاسلام ، وقد رأينا أن الأصمعى علل ذلك بأن الشعر نكد يقوى فى الشر ويسهل ، فاذا دخل فى الخير ضعف ولان ، وكيف علل حسان ذلك فقال ان الاسلام يحجز عنى الكذب ، يعنى أن الاجادة فى الشعر تستدعى الافراط والمبالغة وهذا ضرب من الكذب يمنعه الاسلام .

ان ظاهرة اختلاف المستوى الفنى لشعر حسان فى الاسلام عنه فى الجاهلية ظاهرة لافتة للنظر ، فلا شك أن من يقرأ شعر حسان يشعر بالفارق الكبير بين القصائد التى نظمها فى الجاهلية وبين تلك التى نظمها فى الاسلام ، فقصائده الجاهلية قوية جزلة صادقة التعبير ، تنبض بالحيوية ، وتتدفق بالأحاسيس التى توارثتها نفسه جيلا بعد جيل ، أما شعره الاسلامى فقليل ذلك الذى يحتفظ

بمستواه ، وكثير الذى يسقط ويضعف . وهناك سببان لهذه الظاهرة :

أولهما : أن كثيرا من هذا الشعر الضعيف منحول وليس لحسان بن ثابت وانما صنعته قريش ثم أضاف له الرواة كثيرا وقد أشرنا الى شيء من ذلك فى مقدمة هذا الكتاب .

وثانيهما : أن حسان وجد نفسه بعد ظهور الاسلام ودخول يثرب فى الدين الجديد وهجرة الرسول اليها فى مأزق فنى ، كان شاعر الخزرج فى الجاهلية ما يقرب من ستين عاما كما تذكر الروايات وعاش معظم هذه السنين الطوال التى تعتبر فى عمر الشاعر أهم مراحل خصبه الفنى ، يغرف مما يغرف منه الشعراء الجاهليون ، وجاء الاسلام وتآخى الأوس والخزرج ، وحرمت الخمر والميسر ، وتوقف مديح الملوك ، فليس من المعقول أن يمدح شاعر مسلم ملكا لم يدخل فى الاسلام بعد . وأصبح شاعرنا وقد حاصرت الحياة الجديدة فنه لا يجد مجالا ينظم فيه كما تعود فى جاهليته ، وفجأة وجد أن دورا عليه أن يمثله وهو فى الستين من عمره ، وذلك أن يكون شاعر الرسول والمسلمين. لقد كان طوال هذه السنين يؤدى دورا واحدا ، فكيف يمكنه أن يغير هذا الدور الى دور جديد يختلف تمام الاختلاف عن الدور الأول ، فهو لا يستطيع أن يفخر بالأيام القديمة ، ولا يستطيع أن يمدح بالخمر والميسر ، أو يفخر بالخزرج أو يؤجج نار الحرب ، ولكن عليه أن يمدح رجلا ليس بملك أو بشيخ قبيلة وانما رسول جاء بدين جديد . حقا انها لتجربة خطيرة لم يتعرض لها شاعر من

قبل أو من بعد . ثم عليه بعد ذلك أن يمدح خصومه الأوس كما يفخر بهم وكأنهم أهله وعشيرته ، وعليه بعد هذا أن يهجو قوما ما كان بينهم وبينه هجاء من قبل ، قوما سالمتهم قبيلته فى جاهليتها، وصاهرت أفضل أحيائهم ، ثم هذا الرسول الذى يمدحه ينتسب اليهم . انه موقف شائك ولا شك ، وصعب على رجـل قضى ستين عاما فى جو اجتماعى وفنى مختلف أن يجابهـه ، فكيف لا يضعف شعر حسان بعد هذا ، ان تحوله لأن يكون شاعر الرسول قدرة فائقة فى ذاتها ، فكيف به وقد نظم الشعر وصمد أمام المشركين وكان الشاعر الرسمى للاسلام .

ورغم كل هذا فقد استطاع حسـان أن ينغص حيـاة من يهجوهم وأن يشيد بمن يمدحهم وكسب المسلمون المعركة الفنية كما كسبوا المعارك الحربيـة .

و ـ حسان وفن المناقضة :

المناقضة عند حسان ليست شيئا جديدا عليه فى الاسلام ، فقد رأيناه فى الجاهلية يناقض شعراء الأوس والقبائل الأخرى المناهضة لقبيلته ويؤدى دوره كاملا فى الرد على كل ما أضافوه اليه أو الى قبيلته مما يشين القيم الجاهلية أو يتعارض مع فتوتها.

وكانت النقائض كلها فى عصر الرسول عليه السلام امتدادا للنقائض الجاهلية من حيث أصولها الفنية ، وقد شارك حسان فيها شعراء مخضرمين أدركوا العصرين الجاهلى والاسلامى فى مكة والمدينة ومن العرب واليهود رجالا ونساء !

ولقد تغيرت النقيضة الاسلامية عن أختها الجاهلية من عدة

نواح، كان الهدف فى الجاهلية يدور حول سبل العيش أو التنافس على الرئاسة أو مطمع فردى ، ولكنه فى الاسلام يدور حول دين ينتشر ودولة تقوم ، وأمة تتكون ، والموضوع فى الجاهلية افتخار وارهاب وتمجيد وهجاء ، فزاد فى الاسلام دعوة الى الايمان ، وتبصيرا بالحق ، وشرحا لدين جديد . واستمر الأسلوب واحدا فى العصرين فهو معارضة بالوقائع والأيام ، والمآثر والمحامد ، وتعيير بالمثالب والمخازى وطعن فىالأنساب والأصول . وقد أضاف الاسلام أسلوبا جديدا برز فيه عبد الله بن رواحة حين كان يعير المشركين بالكفر والاشراك بالله وهو أسلوب لم يعرفه الجاهليون.

ولم يكن الشعراء وحدهم فى هذه المعركة الفنية بل لقد دخلها القرآن [1] الكريم حينما سجل ذلك الجدل الذى كان يثار بين الرسول وبين العرب واليهود والنصارى والمجوس فى موضوعات شتى كالألوهية والنبوة والبعث ، فها هو يرد دعاوى اليهود والنصارى ويكذبهم تكذيبا قائما على أدلة واقعية كقوله تعالى « وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ، قل ، فلم يعذبكم بذنوبكم ، بل أنتم بشر ممن خلق ، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما . واليه المصير »[2] .

فاذا استمر ادعاؤهم بأنه لن يدخل الجنة غيرهم طالبهم بالبرهان « وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى ،

---

(١) انظر تاريخ النقائض فى الشعر العربى ١٢١ وما بعدها .
(٢) سورة المائدة آية ١٨ .

تلك أمانيهم ، قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين ، بلى ، من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون »[1] .

ان أسلوب القرآن الكريم فى مناقشة خصوم الاسلام أسلوب يعتمد على المناقضة والرد على المفتريات التى يشيعها أعداء الرسول والمسلمين ، ومن هنا لم يكن الشعر الاسلامى وحده فى تلك المعركة الفنية ، بل كانت الحياة الفنية بكل عناصرها تساهم فيها وتشترك بكل مكوناتها حتى استطاع المسلمون فى النهاية أن يتغلبوا فيها كما تغلبوا فى معركة السيف ومعركة الدعوة .

لا نغالى اذن اذا قلنا ان النقائض الاسلامية كانت من الناحية الفنية امتدادا للنقائض الجاهلية وأنها دارت فى ظل الغزوات كما كانت تدور أختها الجاهلية فى ظل الأيام .

ولقد اشترك حسان فى هذه المناقضة منذ غزوة بدر ، واستمر علمها الأكبر ، ولسانها الحاد حتى يوم فتح مكة ، يرد على الخصوم ويهاجم المشركين ، وهو فى كل ذلك يحمى أعراض المسلمين ، ويفخر بنبوة الرسول .

فعندما بكى عبد الله بن الزبعرى قتلى بدر من المشركين فى أبياته التى منها :

ماذا على بدر وماذا حوله

من فتية بيض الوجوه كرام

(1) سورة البقرة آية ١١١ .

تركوا نبيها خلفهـــــم ومنبهـــا
وابنى ربيعـــة خير خصـــم فئـــام
والحارث الفياض يبرق وجهــــــه
كالبدر جلى ليـــــلة الاظـــلام

أجابه حسان :

ابك بكت عينـــاك ثم تبـــادرت
بـــدم تعـــل غروبها بســـــجام
مـــاذا بكيت به الـــذين تتابعـــوا
هلا ذكرت مكارم الأقـــــوام
أعنى النبى أخـــا المكارم والنـــدى
وأبر من يولى عـــلى الأقســـــام
فلمثــــله ولمثـــل ما يدعـــو لـــه
كان الممـــدح ثم غـــير كهـــام

ويقوم رد حسان على نقطتين : استنكاره البكاء على قتلى المشركين من قريش والافتخار بالرسول ودعوته .

وعندما يعرض حسان بالحارث بن هشام وبفراره من المعركة يوم بدر فى قوله :

يا من لعـــاذلة تلوم ســـــفاهة
ولقد عصيت على الهـــوى لوامى
ان كنت كاذبة الذى حـــدثتنى
فنجوت منجى الحـــارث بن هشـــام

ترك الأحبــة أن يقـــاتل دونهـــم
ونجــا برأس طمــرة ولجـــــام
وبنو أبيــه ورهطــه فى معـــرك
نصر الاله به ذوى الاســـــــلام

يرد عليه الحارث قوله مدافعا عن نفسه ،موجها دعوته الى تفسير جديد فيقول :

الله أعـــلم ما تركت قتالهـــــم
حتى حبــوا مهرى بأشـــقر مزبد
وعرفت أنى ان أقاتل واحــــــدا
أقتــل ، ولا ينكى عدوى مشهدى
فصددت عنهم والأحبــة فيهـــم
طمعا لهم بعقــاب يوم مفســـــد

وحينما يفزع كعب بن الأشرف اليهودى من انتصار المسلمين فى بدر وهزيمة أشراف قريش يأتى مكة وينزل على عبد المطلب ابن أبى وادعة السهمى فيحرض على الرسول وعلى المسلمين ببكاء أصحاب القليب من قريش الذين أصيبوا فى بدر فيقــول من قصــيدة :

طحنت رحى بدر لمهلك أهـــــله
ولمثــل بدر تستهــــل وتدمـــــع
قتلت سراة النــاس حــول حياضهم
لا تبعــــدوا ان الملوك تصـــرع

كم قد أصيب به من ابيض ما جـد
ذى بهجـة يأوى اليـه الضيع
طلق اليـدين اذا الكواكب أخلفت
حمـال أثقـال يسـود ويربع
نبئت أن الحـارث بن هشـامهم
فى الناس يبنى الصـالحات ويجمع
ليزور يثرب بالجمـوع وانمـا
يحمى على الحسب الكريم الأروع

ويجيبه حسان بن ثابت يسخر به ، ويشمت فى قتلى المشركين، ويهجو الفارين منهم ، ويمدح الرسول :

أبكى لكعب ثم عـل بعـبرة
منـه وعاش مجـدعا لا يسـمع
ولقـد رأيت ببطن بدر منهـم
قتـلى تسـح لها العيـون وتدمع
فابكى فقد أبكيت عبدا راضـعا
شـبه الكليب الى الكليبة يتبـع
ولقـد شـفى الرحمن منا سـيدا
وأهان قـوما قاتلوه وصرعـوا
ونجـا وأفلت منهـم من قلبـه
شـعف يظـل لخوفه يتصـدع

وفى أحد يجد المشركون فرصتهم ، ويعلن أبو سفيان بن حرب النصر متشفيا ، ويصرخ بأعلى صوته :

ولو أنني لم أشف نفسى منهم
لكانت شجا فى القلب ذات ندوب
فآبوا وقد أودى الجلابيب منهم
بهم خدب من معبط وكئيب [1]
أصابهم من لم يكن لدمائهم
كفاء ولا فى خطة بضريب

وبرد عليه حسان يذكره بانتصار المسلمين فى بدر وكيف حصدوا فيها قريشا حصدا ، وأن حمزة لم يمت هدرا وانما قتل به فى بدر أشراف قريش :

ذكرت القروم الصيد من آل هاشم
ولست لزور قلته بمصيب
اتعجب أن أقصدت حمزة منهم
نجيبا وقد سميته بنجيب
ألم يقتلوا عمرا وعتبة وابنه
وشيبة والحجاج وابن حبيب
غداة دعا العاصى عليا فراعه
بضربة عضب بله بخضيب

وكثرت المناقضة فى أحد وتعددت جوانبها كما تعدد شعراؤها فهذا هبيرة بن أبى وهب المخزومى من المشركين يقول :

سقنا كنانة من أطراف ذى يمن
عرض البلاد على ما كان يزجيها

(١) الخدب : الطعن النافذ للجوف .

قالت كنـانة : أنى تذهبون بنـا ؟
قلنا : النخيـل ، فأموها ومن فيها
نحن الفوارس يوم الجـر من أحد
هابت معـد ، فقلنا : نحن نأتيهـا
هابوا ضرابا وطعنـا صـادقا خذما
مما يرون . وقد ضمت قواصـيها
ثمت رحنـا كأنا عـارض برد
وقام هـام بنى النجـار يبكيها
ويرد حسان عليه معانيه قائلا :
سقم كنـانة جهـلا من سـفاهتكم
الى الرسـول فجنـد الله مخزيهـا
أوردتموها حيـاض الموت ضـاحية
فالنـار موعـدها والقتـل لاقيها
جمعتمـوها أحابيشـا بلا حسب
أئمة الكفر ، غرتكم طواغيهـا
ألا اعتبرتم بخيـل الله اذ قتلت
أهـل القليب ومن ألقينـه فيهـا
كم من أسـير فككناه بلا ثمن
وجـز ناصـية كنا مواليهـا

كان هبيرة ممتازا فى توجيه الفخر ، وممتازا فى اختيـار الأسلوب ، ثم كان معتزا بنتيجة المعركة ، متخذا منها أرضه الصلبة ومستمدا منها أيضا نغمة الانتصار ، وكان حسان يحس بكل

ذلك ، وكان عليه أن يوجه كل هذه المعاني توجيها فى صالحه ، فكان سوق كنانة عنده جهالة لا بطولة ، وكانت قيادتها الى الموت لا الى النصر ، ثم كان السبق فى النصر للمسلمين فى بدر فهو يومهم الأعظم ، وفخرهم الأجل .

وربما كان من أعنف من قابلهم حسان فى مناقضاته شاعر المشركين عبد الله بن الزبعرى الذى وقف ينشد أغنية أحد التى كانت تغنيها قريش كلما تأزمت بها الحال . يقول موجها حديثه لحسان :

يا غراب البين أسمعت فقل
انما تنطق شيئا قد فعل

ان للخير وللشر مدى
وكلا ذلك وجه وقبل

أبلغا حسان عنى آية
فقريض الشعر يشفى ذا الغلل

كم ترى بالجسر من جمجمة
وأكف قد أبيرت ورجل

كم قتلنا من كريم سيد
ما جد الجدين معدام بطل

فسل المهراس من ساكنه
بين أقحاف وهام كالحجل

ليت أشياخي ببدر شهدوا
جزع الخزرج من وقع الأسل

ولم يكن أمام حسان الا بدر يستمد منها رده عليه ففيها يجد ما يستطيع أن يوازن به بين النصرين : نصر المسلمين في بدر ونصر المشركين في أحد . وكان عليه في هذه الموازنة أن يثبت أن انتصار المشركين في أحد ليس شيئا ، والنصر كل النصر ما كان في بدر . يقول :

ذهبت بابن الزبعـــرى وقعـــة
كان منا الفضـــل فيها لو عـــدل
ولقـــد نلتـــم ونلنـــا منكـــم
وكذاك الحـــرب أحيـــانا دول
نضـــع الأســـياف في أكتـــافكم
حيث نهـــوى عللا بعـــد نهـــل
اذ تولـــون عـــلى أعقـــابكم
هربا في الشـــعب أشـــباه الرسل
اذ شـــددنا شـــدة صـــادقة
فأجأناكم الى ســـفح الجبـــل
وعلـــونا يوم بـــدر بالتـــقى
طاعـــة الله وتصـــديق الرســـل
وتركنـــا في قريش عـــــورة
يوم بدر وأحـــاديث المثـــل

وتكثر المناقضات ، فها هو يهجو أبا سفيان بن الحارث في بدر الآخرة التي رجع فيها أبو سفيان فلم يتقدم للقاء المسلمين بأبياته التي أولها :

دعوا فلجات الشام قد حـال دونها
جلاد كأفواه المخـاض الأوارك

أقمنا عـلى الرس النزوع ثمانيـا
بأرعن جـرار عريض المبـارك

بكل كميت جـوزه نصـف خلقـه
وقب طـوال مشرفات الحـوارك

فأبلغ أبا سفيان عنى رسـالة
فانك من عز الرجـال الصـعالك

فيجيبه أبو سفيان بأبياته التى منها :

أحسان مهلا يا ابن آكلة الغفـا
وجـدك نغتـال الخروق كذلك

أقمت عـلى الرس النزوع تريدنا
وتتركنا فى النخـل عنـد المدارك

على الزرع تمشى خيلنـا وركابنا
فمـا وطئت ألصـقنه بالدكادك

وجدير بالملاحظة فى هذه النقيضة أن أبا سفيان حين يهجو حسان وقومه من الخـزرج ينفى عنهم فضيلتين يتمـدح بهما المسلمون وهما : الهجرة والتدين ويثبتهما لقريش المهاجرة فهى منهم على أى حال !

فانك لا فى هجـرة ان ذكرتهـا
ولا حرمات الدين أنت بناسـك

وفى يوم الخندق نجد المعركة حادة بين ابن الزبعرى وحسان، فابن الزبعرى يفتخر بجيش عيينة الذى ناصر المشركين ، ويعلن أنه لولا الخندق الذى حفره المسلمون حماية لهم ودفاعا عن مدينتهم لدخلت قريش المدينة ظافرة قائلة . وهذه القصيدة هى التى أولها :

حيّ الديار محا معارف رسمها
طول البلى وتراوح الأحقاب

وفيها يقول :

جيش عيينة قاصد بلوائه
فيه وصخر قائد الأحزاب
قرمان كالبدرين أصبح فيهما
غيث الفقير ومعقل الهراب
حتى اذا وردوا المدينة وارتدوا
للموت كل مجرب قضاب
شهرا وعشرا قاهرين محمدا
وصحابه فى الحرب خير صحاب
نادوا برحلتهم صبيحة قلتم
كدنا نكون بها مع الخياب
لولا الخنادق غادروا من جمعهم
قتلى لطير سغب وذئاب

ويرد حسان على ابن الزبعرى معانيه[1] ، فهذا الجيش — وعيينة معه — قد هزمته العاصفة ، ورد على عقبه مغيظا وكان ذلك حماية من الله تعالى للرسول والمسلمين .

جيش عيينة وابن حـرب فيهـــم
متخمطـون بحلبـــة الأحـــزاب

حتى اذا وردوا المدبنـــة وارتجـو
قتــل الرســول ومغنـم الأسلاب

وغـــدوا علينا قادرين بأيدهـــم
ردوا بغيظهم على الأعقـــــاب

بهبوب معصفة تفــرق جمعهـــم
وجنــود ربك ســـيد الأرباب

فكفى الالـــه المؤمنين قتالهـــم
وأثابهـم فى الأجـــر خـير ثواب

من بعد ما قنطوا ففرق جمعهـــم
تنزيل نصر مليكنــا الوهـــاب

وتكثر المناقضـات لأن الصراع مستمر ، والمعركة دائرة ، والقلم يشارك السيف فى كل ضربة ، ويرمى مع القوس فى كل رمية ، وهنا يحق لنا أن نسأل كيف كان موقف حسان فى هذا الخضم الجارف وما مكانته فيه .

---

(١) مطلع قصيدة حسان :

هل رســـم دراسة المقام يبـــاب
متــكلم لمحـــاور بجـــواب

ربما كان فى حديثنا السابق اشارات الى طبيعة موقفه والى مكانته بين هؤلاء المتناقضين ، ولكن يهمنا هنا أن نفصل الحديث فى كل ذلك لأن المناقضات هى الموضوع الرئيسى الذى يساعدنا على رسم صورة واضحة لشخصية حسان فى الاسلام .

لنتخيل شاعرا عاش أخصب فترات عمره عيشة جاهلية بكل ما يمثله هذا اللفظ من تصوير لهذه البيئة بمعتقداتها وتقاليدها وثقافاتها وتكوينها الاجتماعى والنفسى . ولم يكن هذا الشاعر منعزلا أو مبتعدا عن هذه البيئة بأى صورة من الصور ، بل على العكس كان ممثلا لها فى كل شئونها ، وتعكس عليه كل ملامحها لأنه كان ابنا بارا لعصبيتها ولكل ما تمثله من أساليب حياة .

وفجأة تتغير هذه البيئة كلية — أو اذا حاولنا أن نحترز قليلا — تتجه نحو التغير فى كل مكوناتها ، التكوين الاجتماعى والعقيدى والاقتصادى والنفسى وهو ما حاولنا أن نتحدث عنه فى أول هذا القسم من كتابنا عندما تحدثنا عن التغير الكبير الذى طرأ على يثرب ، وفجأة أطالب الشاعر بأن يتغير هو أيضا ، يتغير فى معتقده وفى طريقة ارتباطه بمجتمعه وفى نفسيته وهذا أخطر التغيرات جميعا . وهو ليس انسانا عاديا اذا حدث تغير فيه فلن يشعر به أحد شعورا مباشرا ولكنه شاعر خطير ينظر اليه كما ينظر الى فارس من فرسان القبيلة أو شيخ من شيوخها لأن مكانته فى قومه لا تقل عن ذلك ان لم تعل هؤلاء جميعا . وهو ينظم الشعر يتحدث به عن مألوف معتقدات القبيلة وقيمها وأسلوب حياتها ولقد عاش ستين عاما يؤدى دوره هذا دون كلل ودون

أى تغيير . وفجأة تطالبه القبيلة أن يتغير كما تغيرت ، وأن يسلك سلوكا جديدا لم يتعوده طوال عمره الطويل الذى عاشه ، وان لم يفعل ذلك فقد اختل وضعه الاجتماعى ، وفقد صفته الأساسية فى قومه ووظيفته الرئيسية فى بيئته ! والشاعر ذكى ، ويعلم جيدا أنه ان فشل فى توجيه حياته وأسلوب معيشته وتوجيه فنه أيضا هذه الوجهة الجديدة فقد نفسه بين قومه . وان هذا كله يجعلنا نتصور الموقف الحرج الذى وضع فيه حسان الشاعر الجاهلى العريق !

وقد يكون من السهل نسبيا أن يتغير حسان معتقده ، وأن يألف التكوين الجديد لمجتمعه ، وأن يخضع لكل ما ألم بقومه من تغيير فلا يتخلف فى اتباعها ولكنه هل يستطيع بهذه السهولة أيضا أن يغير من تكوينه النفسى الذى تحددت أبعاده ، وترسبت خصائصه طوال هذا العمر الطويل !

تلك كانت مشكلة حسان مع نفسه ومع فنه !

لقد وجد حسان فى النقيضة متنفسا للتعبير عن هذه النفسية ما لم يجده فى أى شكل آخر كالقصيدة مثلا ، لأن النقيضة هى الفن الجاهلى الأصيل الذى يعبر عن ذلك الصراع الذى كان يمثل منطق البقاء لتلك الحياة ، والمناقضة كالمبارزة سواء بسواء هى المظهر الرئيسى لهذا الصراع ، وهى المعبر عنه كلما التقت الصفوف ، وتقارعت السيوف . لذلك نلاحظ فى تلك الأمثلة التى ذكرناها عن هذه المناقضات الاسلامية أنها استمرار للمناقضات الجاهلية فى شكلها ومضمونها وان كسا حسان الاسلامية منها

ببعض المعانى المستمدة من الدين الجديد والتى لم تكن مألوفة فى هذا الوقت .

فالنقيضة الاسلامية كأختها الجاهلية اصطراع بأصالة الأنساب وأمجاد الأيام ، وافتخار بقيم الفتوة ، وعنجهية البداوة . وتهاج بذكر المثالب وتسجيل المخازى واظهار المعايب وفضح العورات ، ثم بعد ذلك اصرار على الانتقام وقتل الخصوم ، وتأكيد فى ابراز الفردية وقوة العصبية .

وكان حسان صاحب مجد فى كل ذلك فى الجاهلية ، واستمر صاحب فضل فى كل ذلك فى الاسلام ، فأما الاصطراع بأصالة الأنساب وأمجاد الأيام فقد غرف من النبع الجاهلى القديم ثم استمد من نبع جديد انبثق فى عهد الرسول وهو فى غزواته صلى الله عليه وسلم للمشركين . وأما الافتخار بقيم الفتوة وعنجهية البداوة فقد أبقى الاسلام على كثير من مظاهر هذه الفتوة كذلك أبقى على القوة النفسية للبدوى وأخذ يوجهها نحو الخير والحق، ويستمد حسان من العنصرين معا : الفتوة والقوة النفسية — المعانى فى مناقضاته . وأما التهاجى بالمثالب والمخازى فقد اعتمد حسان عليهما فى اذلال مهاجيه من المشركين ولم يتوان عن ذكر المعايب وفضح العورات ليحطم من كبريائهم ، ويذل من نفسياتهم.

واذا نظرنا بعد ذلك الى تأكيده لنبرة الانتقام فى شعره وخاصة بعد أحد وبعد يوم بئر معونة وبئر الرجيع ، فسنجد أنها تتردد بعنف فى نقائضه ، يرد بها على من شمتوا بالمسلمين فى تلك الأيام، وفرحوا فيمن استشهد منهم غدرا وغيلة .

ولقد كان شعر حسان كله يؤكد نوعا جديدا من العصبية غلف به العصبية الجاهلية القديمة ، تلك هى عصبيته للمسلمين من الأنصار والمهاجرين ، وعصبيته للرسول صلى الله عليه وسلم وما يحمله من عقيدة قويمة وكتاب كريم . ورغم أن عصبية حسان القبلية كانت تظهر الى جانب هذه العصبية الجديدة فقد كان ذلك ليمكن لنفسه من أن يرد على عصبية قريش المفاخرة بالأيام والأنساب ، والتى دفعته الى أن يتحدث ويفاخر بعصبية الخزرج وبنى النجار .

واننا لنؤكد بعد كل ما عرضناه من نماذج وأمثلة لهذه المناقضات من أن هذا الفن كان أهم ما نجح فيه حسان فى الاسلام ، وان أى قراءة سريعة لمناقضاته ستجعلنا نحس من الوهلة الأولى بقوتها وتفوقها على غيرها من فنون شعره ، وان سبب ذلك بسيط جدا ، فقد وجد فى هذه المناقضات استمرارا لفنه الجاهلى القديم الذى ألفه طوال عمره ، واستمر يألفه فى الاسلام دون أن يضطر لأن يغير من أصوله شيئا .

الفصل الرابع
شعر حسان فى عصر الخلفاء الراشدين

امتد العمر بحسان حتى شهد خلافة على ، ومعنى ذلك أنه عاصر أهم فترة فى تاريخ نشأة الدولة الاسلامية من حيث تكوينها وفتوحاتها . وهكذا أتاح القدر لهذا الرجل أن يشهد أخطر ثلاث مراحل فى تاريخ الجزيرة العربية مرحلة ما قبل الاسلام عندما بلغ الصراع القبلى أوجه حتى خاف كل عربى على نفسه من القتل اذا ما خرج عن حيه أو حصنه ، ومرحلة الدعوة الاسلامية كلها منذ أن بعث الرسول صلى الله عليه وسلم حتى وفاته . بكل ما فيها من أحداث وتطور فى مجتمع الجزيرة العربى ، وأخيرا مرحلة خلافة الخلفاء الراشدين وما ضمته هذه المرحلة من أحداث خطيرة تتصل بالدعوة كحروب الردة ومدعى النبوة وحروب الفتح ثم أحداث الفتنة الكبرى فى عصر عثمان وعلى وتصدع الوحدة الاسلامية .

وقد شهدت مدينة الرسول نوعا من الحياة الهادئة المستقرة فى عهدى أبى بكر وعمر رضى الله عنهما اذ أصبحت عاصمة الدولة الجديدة حتى أن القرشيين الطامحين انتقلوا من مكة اليها كأبى سفيان بن حرب وبنى أمية منذ أواخر عهد الرسول ، وكثرت

الهجرة اليها — ليس من مكة فحسب بل من جميع أنحاء جزيرة العرب وخاصة أولئك الذين كانوا يبحثون عن فرصتهم فى هذه الحياة الجديدة . وأخذ عدد المهاجرين يتزايد حتى فقد الأنصار — سكان يثرب الحقيقيون — كثرتهم العددية وأخذوا ينزلون الى المرتبة الثانية عددا ونفوذا . وهكذا أصبحت المدينة مقر الحكومة الاسلامية ، كما أصبحت مقر الطبقة الارستقراطية من القرشيين ، وكثرت فيها الأموال التى كانت تتدفق على المسلمين أثناء حروب الفتح مما هيأ الفرصة لانتشار الترف ، والانغماس فى الرفاهية وكان لهذا مظاهره فى المدينة .

وحينما خرج الخلفاء الأولون من صفوف قدماء الصحابة وكبارهم أولئك الذين هاجروا بدينهم وثبتوا فى ميادين الجهاد الى جانب نبيهم ، خلف ذلك شيئا من الأسى فى أول الأمر فى نفوس الأنصار الذين كانوا يرغبون فى أن تكون الخلافة فيهم ، وظهر ذلك يوم انتخاب أبى بكر خليفة للمسلمين فى سقيفة بنى ساعدة ، وقد كان لحروب الردة أثرها فى اختفاء الانقسام الذى كان يمكن أن يقع فى انتخاب الخليفة الأول ، فالخطر يتهدد المسلمين جميعا ، والأنصار — وهم الأوفياء لرسولهم ولدينهم — هم أول من يخرجون لرد المرتدين واخماد ثورات المتنبئين .

وحينما بدأ عصر الفتح الاسلامى لامبراطوريات الشمال كان الأنصار يكونون جزءا عظيما من الجيش الفاتح وان لم تكن القيادات الكبيرة فى أيديهم .

ولم تنته معارضة الأنصار للخليفة الحاكم وانما اندمجت فيما

بعد فى التيار الذى كان يتزعمه أهل التقى والمتمسكون بسلامة نظام الحكومة التيوقراطية !

وقد لاقت سياسة عثمان وولاته معارضة شديدة فى الأمصار الاسلامية المفتوحة ، وقامت فيها الثورات مثل ثورة مالك بن الأشتر فى الكوفة ، وثورة محمد بن أبى حذيفة فى مصر ، ووفد الثوار الى المدينة وحينئذ شهدت حدثا رهيبا وهو مقتل خليفة رسول الله عثمان بن عفان على أيديهم . وكان أكثر أهل المدينة لا يميلون لعثمان وشيعته الأموية ولكن يميلون الى على بن أبى طالب ويرون فيه أحق أهل الرسول بالخلافة ، لذلك سرعان ما بايعوه مبايعة عامة فى مسجد الرسول وفى نفس اليوم الذى قتل فيه عثمان . أما المناهضون لعلى فقد خرجوا منها بعد أن أصبحت معقلا لأنصاره . وقد اتجه طلحة والزبير ومعهما السيدة عائشة رضى الله عنها الى البصرة حيث استولوا عليها . واتخذوها قاعدة لمناهضة الخليفة الجديد . وعندئذ لم يكن أمام على الا أن ينتقل الى الكوفة حيث يسيطر مؤيده مالك بن الأشتر ليكون قريبا من مراكز المعارضة سواء فى البصرة أو دمشق . وبذلك انتهت الخلافة من مدينة الرسول وانتقل مركز الثقل فى جزيرة العرب من وسطها الى أطرافها .

وأصبحت المدينة بعد انتقال الخلافة منها ملاذ الطبقة الأرستقراطية من العرب وصومعة الذين اعتزلوا الحياة العامة من كبار الصحابة والتابعين بسبب أحداث الفتنة وانشقاق المسلمين .

وتستمر الأحداث فى توجيه الشعور العام بالمدينة بعد مقتل

علی ، ولكن الى هنا لا نجد أخبارا عن حسان ، وأغلب الظن أنه توفى في أواخر الفتنة أو أوائل خلافة معاوية وكان قد بلغ نيفا ومائة عام .

ولكننا اذا تتبعنا حياته منذ وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم فسنجد أن صوته يخفت فى عهد أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، وكأنه قد أدى واجبه فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم . وكان من المتوقع أن نسمع صوت حسان يسجل أحداث المرتدين والمتنبئين وهى أحداث هزت المجتمع الاسلامى فى أول عهده بغياب الرسول عنه ، وغياب قيادته الروحية والمدنية المباشرة .

وقد يكون حسان قد سجل شيئا من هذه الأحداث وفقدها الرواة اذ أننا نجد أبياتا له فى هجاء بنى سليم وكانوا قد قالوا بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم : لا نطيع أبا الفصيل ويعنون أبا بكر . يقول فى هذه الأبيات :

ما البكر الا كالفصيل وقد ترى
أن الفصيل عليه ليس بعار

انا وما حج الحجيج لبيته
ركبان مكة معشر الأنصار

نفرى جماجمكم بكل مهند
ضرب القدار مبادى الأيسار

حتى تكنوه بفحل هنيدة
يحمى الطروقة بازل هدار

ونجد أبياتا له فى أبى بكر أيضا اختلف فيها الباحثون ، فمنهم من قال انها فى مدحه ، ومنهم من قال انها فى رثائه . يقول فيها :

اذا تذكرت شجوا من أخى ثقة
فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا
خير البرية أتقاها وأعدلها
بعد النبى وأوفاها بما حملا
والثانى الصادق المحمود مشهده
وأول الناس منهم صدق الرسلا
عاشا حميد لأمر الله متبعا
بهدى صاحبه الماضى وما انتقلا

وقد أشار الجاحظ الى أن هذه الأبيات فى رثاء أبى بكر وكذلك دونت مخطوطات الديوان ، غير أن الأستاذ عبد السلام هارون يقول انها فى مدحه رضى الله عنه .

ولا أحب أن أشك فى صحة نسبة هذه الأبيات لحسان فذلك له مكان آخر .

أما فى عهد عمر فاننا نجد أبا الفرج الأصفهانى يسجل خبرا فى أغانيه يدل على صلة حسان بالنزاع القبلى الذى كان ما يزال يعيش فى نفوس بعض المسلمين ويوجه سلوكهم ، كذلك يدل على أن المناقضات التى ثارت بين شعراء المسلمين وشعراء المشركين ما زالت تثير الاحن فى النفوس . وكان عمر قد نهى الناس عن أن ينشدوا شيئا من مناقضة الأنصار ومشركى قريش ، وقال : فى

ذلك شتم الحى بالميت وتجديد الضغائن . وقد هدم الله أمر الجاهلية بما جاء فى الاسلام .

فقد حدث أن قدم المدينة عبد الله بن الزبعرى السهمى وضرار ابن الخطاب الفهرى — وهما من كبار هجائى قريش المشركة قبل الفتح — فنزلا على أبى أحمد بن جحش وقالا له : نحب أن ترسل الى حسان بن ثابت حتى يأتيك فننشده وينشدنا مما قلنا له وقال لنا . فأرسل اليه فجاءه . فقال له : يا أبا الوليد ، هذان أخواك ابن الزبعرى وضرار قد جاءا أن يسمعاك وتسمعهما ما قالا لك وقلت لهما . فقال ابن الزبعرى وضرار : نعم يا أبا الوليد ! ان شعرك كان يحتمل فى الاسلام ولا يحتمل شعرنا . وقد أحببنا أن نسمعك وتسمعنا . فقال حسان : فتبدآن أم أبدأ ، قالا : نبدأ نحن . قال : ابتدئا ! فأنشداه حتى فار فصار كالمرجل غضبا ، ثم استويا على راحلتيهما يريدان مكة . فخرج حسان حتى دخل على عمر بن الخطاب فقص عليه قصتهما وقصته. فقال له عمر ، لن يذهبا عنك بشىء ان شاء الله . وأرسل من يردهما. وقال له عمر : لو لم تدركهما بمكة فارددهما علىّ . وخرجا ، فلما كانا بالروحاء (١) رجع ضرار الى صاحبه بكره فقال له : يا ابن الزبعرى ! أنا أعرف عمر وذبه عن الاسلام وأهله ، وأعرف حسان وقلة صبره على ما فعلنا به ، وكأنى به وقد شكا اليه ما فعلنا فأرسل فى آثارنا وقال لرسوله : ان لم تلحقهما الا بمكة فارددهما على فاربح بنا ترك العناء وأقم بنا مكاننا ، فان كان الذى ظننت

(١) موضع بين مكة والمدينة على بعد ثلاثين ميلا من المدينة .

فالرجوع من الروحاء أسهل منه من أبعد منها ، وان أخطأ ظنى فذلك الذى نحب ونحن من وراء المضى . فقال ابن الزبعرى : نعم ما رأيت . قال فأقاما بالروحاء فما كان الا كمر الطائر حتى وافاهما رسول عمر فردهما اليه ، فدعا لهما بحسان . وعمر فى جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال لحسان : أنشدهما مما قلت لهما ، فأنشدهما حتى فرغ مما قال لهما فوقف. فقال له عمر : أفرغت ؟ قال : نعم ! فقال له : انشداك فى الخلاء وأنشدتهما فى الملأ . وقال لهما عمر : ان شئتما فأقيما ، وان شئتما فانصرفا . وقال لمن حضره : انى قد كنت نهيتكم أن تذكروا مما كان بين المسلمين والمشركين شيئا دفعا للتضاغن عنكم وبث القبح فيما بينكم ، فأما اذا أبوا فاكتبوه واحتفظوا به . فدونوا ذلك عندهم . قال خلاد بن محمد فأدركته والله وان الأنصار لتجدده عندها اذا خافت بلاءه .

وقد رثى حسان عمر بن الخطاب عندما توفى بأبيات قليلة : تحكى قصة مقتله وتصف أخلاقه بصورة تقريرية لا أثر فيهـا للعاطفة أو التأثر . وهى :

وفجعنـــــا فيروز لادر دره
بأبيـــض يتـلو المحكمات منيب

رءوف على الأدنى غليظ على العدا
أخى ثقـــــة فى النائبـات نجيب

متى ما يقل لا يكذب القول فعـله
سريع الى الخـيرات غـير قطوب

مطيع لأمـر الله بالحـق عـارف
بعيــــد الأنام عنـــــده كقريب

وتأتى الخلافة الى عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وإذا بنا فجأة نسمع صوت حسان مرة أخرى — بعد أن كان اختفى تقريبا فى عهد أبى بكر وعمر — ثائرا غاضبا ومتوعدا ومؤلبا وذلك أثناء الثورة عليه من الأمصار ثم بعد مقتله رضى الله عنه . وهنا تقف برهة لنتبين هوى حسان فى خضم هذا الصراع السياسى الذى بدأ بخلافة عثمان .

روى أبو الفرج الأصفهانى (١) أن حسان بن ثابت ونعمان ابن بشير وكعب بن مالك كانوا عثمانية ، وكانوا يقدمون بنى أمية على بنى هاشم . ويقولون الشام خير من المدينة ، واتصل بهم أن ذلك قد بلغ عليا فدخلوا عليه فقال له كعب بن مالك : يا أمير المؤمنين ! أخبرنا عن عثمان أقتل ظالما فنقول بقولك أو قتل مظلوما فنقول بقولنا ونكلك الى الشبهة فيه ، فالعجب من تيقننا وشكك . وقد زعمت العرب أن عندك علم ما اختلفنا فيه ، فهاته نعرفه . ثم قال :

وكف يــديه ثم أغـلق بابـــه
وأيقن أن الله ليس بغـــــــافل
وقال لمن فى داره لا تقـــاتلوا
عفا الله عن كل امرىء لم يقــاتل

(١) الأغانى ١٥ : ٢٩ (الساسى) .

فكيف رأيت الله صب عليهم الـــ
مداوة والبغضـــــاء بعد التواصـــل
وكيف رأيت الخـــير أدبر عنهـــم
وولى كادبار النعــــام الجـــوافل

فقال لهم على عليه السلام : لكم عندى ثلاثة أشياء ، استأثر عثمان فأساء الأثرة ، وجزعتم فأسأتم الجزع ، وعند الله ما تختلفون فيه الى يوم القيامة . فقالوا : لا ترضى العرب بهذا ولا تعذرنا . فقال على عليه السلام : أتردون علىّ بين ظهرانى المسلمين بلا نية صادقة ولا حجة واضحة ، اخرجوا عنى فلا تجاورونى فى بلد أنا فيه أبدا ! فخرجوا من يومهم فساروا حتى أتوا معاوية فقال : لكم الكفاية أو الولاية ، فأعطى حسان بن ثابت ألف دينـــار ، وكعب بن مالك ألف دينار ، وولى نعمان بن بشير حمص ، ثم نقله الى الكوفة .

وواضح فى هذا النص أن حسان كان عثمانى الهوى ، وأنه كان ممن شارك فى اثارة السؤال الذى يستفسر عن مقتل عثمان هل قتل ظالما أو مظلوما حتى أنه امتنع عن مبايعة على بالخلافة فقد جاء عن عبد الله بن الحسن [1] قال : لما قتل عثمان رضى الله عنه بايعت الأنصار عليا الا نفرا يسيرا منهم حسان بن ثابت وكعب ابن مالك وسلمة بن مخلد وأبو سعيد الخدرى ومحمد بن مسلمة والنعمان بن بشير وزيد بن ثابت ورافع بن خديج وفضالة بن عبيد الله وكعب بن عجرة كانوا عثمانية . فقال رجل لعبد الله بن

(١) الطبرى ج ٥ ص ١٥٣ ـ ١٥٤ .

الحسن كيف أبى هؤلاء بيعة على وكانوا عثمانية ؟ قال أما حسان فكان شاعرا لا يبالى ما يصنع ، وأما زيد بن ثابت فولاه عثمان الديوان وبيت المال ، فأما كعب بن مالك فاستعمله على صدقة مزينة وترك ما أخذ منهم له » .

ويظهر أن حسان استمر فى معارضة علىّ طوال فترة خلافته القصيرة فقد كان يشمت بمن يقيلهم علىّ من الولاء الذين كانوا قد ناصروه فى أول الأمر ، وذلك كما حدث عندما أقال علىّ قيس ابن سعد الأنصارى من ولاية مصر وولى مكانه محمد بن أبى بكر، فغضب قيس ، وخرج منها مقبلا الى المدينة فقدمها فجاءه حسان ابن ثابت شامتا به ، فقال له : نزعك على بن أبى طالب وقد قتلت عثمان فبقى عليك الاثم ولم يحسن لك الشكر . فقال له قيس ابن سعد : يا أعمى القلب والبصر ، والله لولا أن ألقى بين رهطى ورهطك حربا لضربت عنقك ، اخرج عنى !

ويظهر أن حسان كان ممن لعبوا دورا فى حادثة مقتل عثمان: فقد كان واحدا ممن أقنع المصريين بالرجوع الى بلادهم . جاء فى الطبرى أنه لما نزل المصريون ذا خشب ، كلم عثمان عليا وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يردوهم عنه ، فركب على وركب معه نفر من المهاجرين فيهم سعيد بن زيد وأبو جهم العدوى وجبير بن مطعم وحكيم بن حزام ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن عتاب بن أسيد ، وخرج من الأنصار أبو أسيد الساعدى وأبو حميد الساعدى وزيد بن ثابت وحسان بن ثابت وكعب بن مالك .. وغيرهم ثلاثون رجلا ،

وكلمهم على ومحمد بن مسلمة وهما اللذان قدما ، فسمعوا مقالتهما ورجعوا !

كذلك كان حسان واحدا ممن ذب عن عثمان رضى الله عنه قبل مقتله ، فقد روى أنه لما كانت سنة أربع وثلاثين (من الهجرة) كتب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعضهم الى بعض أن اقدموا ، فان كنتم تريدون الجهاد فعندنا الجهاد . وكثر الناس على عثمان ليس فيهم أحد ينهى ولا يذب الا نفير : زيد بن ثابت وأبو أسيد الساعدى وكعب بن مالك وحسان بن ثابت ، غير أن حسان لم يلبث أن ترك المدينة قبل مقتل عثمان قاصدا نحو الشام فى وقت كان الخليفة فيه فى أشد الحاجة لمن يدافع عنه ويشد أزره ، فقد روى أنه لما أحيط بعثمان رضى الله عنه خرج عمرو ابن العاص من المدينة متوجها نحو الشام وقال : والله يا أهل المدينة ما يقيم بها أحد فيدركه قتل هذا الرجل الا ضربه الله عز وجل بذل ، من لم يستطع نصره فليهرب ، فسار معه ابناه عبد الله ومحمد ، وخرج بعده حسان بن ثابت !

وقد حفظ لنا ديوان حسان استصراخه المسلمين لأخذ ثأر عثمان ، ويستطيع الباحث حينما يتأمل هذا الشعر أن يستنتج أن كثيرا منه ليس من نظم الشاعر وانما من وضع الأمويين عليه ، وذلك حتى يثيروا المسلمين ضد المسئول عن مقتل عثمان رضى الله عنه .

وربما كان من أبياته فى هذا الاستصراخ والتى يمكن أن تنال قسطا من التوثيق فى نسبتها اليه قوله :

من سره المـوت صرفا لا مـزاج له
فليأت مأســدة فى دار عثمـانا
مستحقبى حلق المـاذى قد سفعت
فوق المخاطـم بيـض زان أبدانا
شـدوا السيوف بثنى فى مناطقكم
حتى يحين بها فى الموت من حـانا
لعلكم أن تروا يومـا بمغبطـة
خليفـة الله فيكـم كالذى كانا

الى أن يقول :

ضحوا بأشمط عنوان السـجود به
يقطـع الليـل تسـبيحا وقرآنا
لتسـمعن وشـيكا فى ديارهم
الله أكـبر يا ثارات عثمـانا

وقد حاول الأمويون أن يستغلوا هـذا الشعر فى صـفهم فأضافوا اليه على لسان حسان أبياتا تشير الى مكانتهم وتحمل على ابن أبى طالب مسئولية مقتل عثمان ، وهذه الأبيات هى :

وقد رضيت بأهـل الشام زافرة
وبالأمـير وبالاخـوان اخـوانا
انى لمنهم وان غابوا وان شـهدوا
حتى الممات وما سميت حسـانا
صبرا فدى لكم أمى وما ولـدت
قد ينفـع الصبر فى المكروه أحيانا

وأهم ما يلاحظه الباحث فى رثاء حسان لعثمان رضى الله عنه تأجج عاطفته فى هذا الرثاء على خلاف عادته فى رثاء أبى بكر وعمر ، بل انه يهجو قومه من الأنصار وخاصة بنى النجار لأنهم لم يدافعوا عن عثمان وأيدوا الثوار الذين قتلوه . فيقول فى هذا الهجاء :

أوفت بنــو عــوف وأوفت نذرها
وتلونت غدرا بنــو النجـــار
وتخــاذلوا يوم الحقيقــة انهـــم
ليسوا هنالكم من الأخيــــار
ونسوا وصاة محمــد فى صــهره
وتبـــدلوا بالعـــز دار بوار
أتركتموه مفـــردا بمضـــيعة
تنتــابه الغــوغاء فى الأمصــار
لهفـــن يدعو غائبــا أنصـــاره
يا ويحكــم يا معشر الأنصـــار
هــلا وفيتم عنـــدها بوعــودكم
وفديتــم بالســمع والأبصـــار
جــيرانه الأدنون حـــول بيــوته
غدروا ورب البيت ذى الأســتار

كذلك يهجو الثوار الذين أحاطوا بمنزله ثم قتلوه فيقول :

اتركتم غــزو الدروب وجئتـــم
لقتــال قــوم عنــد قبر محمــد

فلبئس هـــدى الصـــالحين هـــديتم

ولبئس فعـــل الجـــاهل المتعمـــد

ان تقبلوا نجعـــل قرى سرواتكم

حول المدينـــــة كل لدن مـــذود

أو تدبروا فلبئس ما ســـــــافرتم

ولمثل أمر امامكم لـــم يهتـــــــد

لقد بكى حسان عثمان بكاء مرا وحزن عليه حزنا شديدا ، لذلك اتسم شعره فيه بصدق العاطفة ، وغلبة الانفعال الجارف عليه . يقول :

ان تمس دار بنى عثمان خـــاوية

باب صريع وباب مخـــرق خـــرب

فقد يصادف باغى الخـــير حاجتـــه

فيها ويأوى اليها العرف والحسب

يا أيها النـــاس أبدوا ذات أنفسكم

لا يستوى الصدق عند الله والكذب

ثم تختفى أخبار حسان بعد مقتل عثمان ، ولا نجد بعد رثائه له بيتا واحدا فى علىّ سواء بمدح أو ذم أو رثاء ، ويظهر أنه مات قبيل موت على بن أبى طالب أو بعده مباشرة ، وكان الأمويون فى أواخر حياته يعطفون عليه رغم أن ابنه عبد الرحمن بن حسان نشأ على هجائهم ، فلم يأخذوا الأب بجريرة الابن وهو الشيخ المسن الضرير .

وكان بصر حسان قد كف فى أواخر حياته ، وربما حدث ذلك

فى أواخر خلافة عمر أو أثناء خلافة عثمان فابن قتيبة يشير الى أنه كان قد كف بصره عندما كان معاوية واليا على الشام وأرسل رسوله الى جبلة بن الأيهم فى بلاد الروم وكان قد تنصر أيام عمر ورحل اليها . وكان معاوية قد تولى هذه الولاية منذ أيام عمر . فقد سأل جبلة بن الأيهم الرسول عن صديقه القديم حسان بن ثابت فأجابه الرسول بأنه شيخ كبير قد عمى .

وجاء فى الكامل عن أبى زيد سعيد بن أوس الأنصارى أن حسان حضر وليمة وقد ذهب بصره ومعه ابنه عبد الرحمن يقوده ، فلما وضع الطعام وجىء بالثريد كان حسان يسأل ابنه : يا بنى أطعام يد أم طعام يدين . فيقول الابن : بل طعام يد ، فيأكل . ثم جىء بالشواء ، فيسأل حسان أطعام يد أم طعام يدين . فيقول الابن : طعام يدين . فيمسك . وفى المجلس قينتان تغنيان بشعر حسان :

انظر خليـلى ببـاب جلق هـــل
تؤنس دون البلقـــاء من أحـد

فكان حسان يبكى لتذكره ما كان فيه من صحة البصر والشباب ، وأخيرا اختفى حسان من مسرح الحياة دون أن يشعر به أحد ، فقد كانت أحداث الفتنة وصراع الأحزاب قد شـغلت المسلمين عن كل شىء ، فلم ينتبه أحد الى وفاة شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك الذى كان علما فى زمن جاهليته ، وعلما فى عصر نبيه فاختلف المؤرخون فى زمن وفاته حتى لقد تراوح اختلافهم بين أربعين عاما !

المراجـــع

١ ـ السـمهورى : وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى
٢ ـ جـواد على : تاريخ العرب قبل الاسلام
٣ ـ أبو الفضـــل ابراهيم والبجـاوى : أيام العرب فى الجاهلية
٤ ـ أبـو الفـــرج الأصفهانى : الأغانى
٥ ـ ابن هشام : السيرة النبوية
٦ ـ ابن قتيبه : أ ـ المعارف
ب ـ الشعر والشـعراء
٧ ـ ابن سـعد : الطبقـــات الكبير
٨ ـ ابن حجـــر العسقلانى :
أ ـ أسـد الغابة
ب ـ تهذيب التهـذيب
٩ ـ ابن عبد البر : الاســتيعاب
١٠ـ حسان بن ثابت : ديوانه ، نســخه خطية بمعهــد المخطوطات العربية
١١ـ قيس بن الخطيم: ديوانه
١٢ـ السهيلى : الروض الانف
١٣ـ ابن عساكر : تاريخ دمشق
١٤ـ الطبرى : أ ـ تاريخ الرســل والملوك
ب ـ التفسير
١٥ـ الفهرست : ابن النـديم
١٦ـ ثعلب : المجـــالس
١٧ـ ابن سلام : طبقات فحول الشـــعراء
١٨ـ قلهوزن : قيام الدولة العربية ترجمة د/ محمد عبد الهادى أبو ريدة
١٩ـ محمد حسين هيكل : حيـاة محمد
٢٠ـ حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام الســياسى
٢١ـ احمد الشايب : تاريخ النقائض

الموضـــوعات

أعلام العرب

الكتاب القادم

المثنى بن حارثة الشيباني

للأستاذ

محمد فرج

يصدر في ٧ يوليو ١٩٦٤

يطلب

مكتبة

٣ شارع كامل

الثمن ٥

مطبعة مصر